ضياء من العقيدة الإسلامية

(٢)

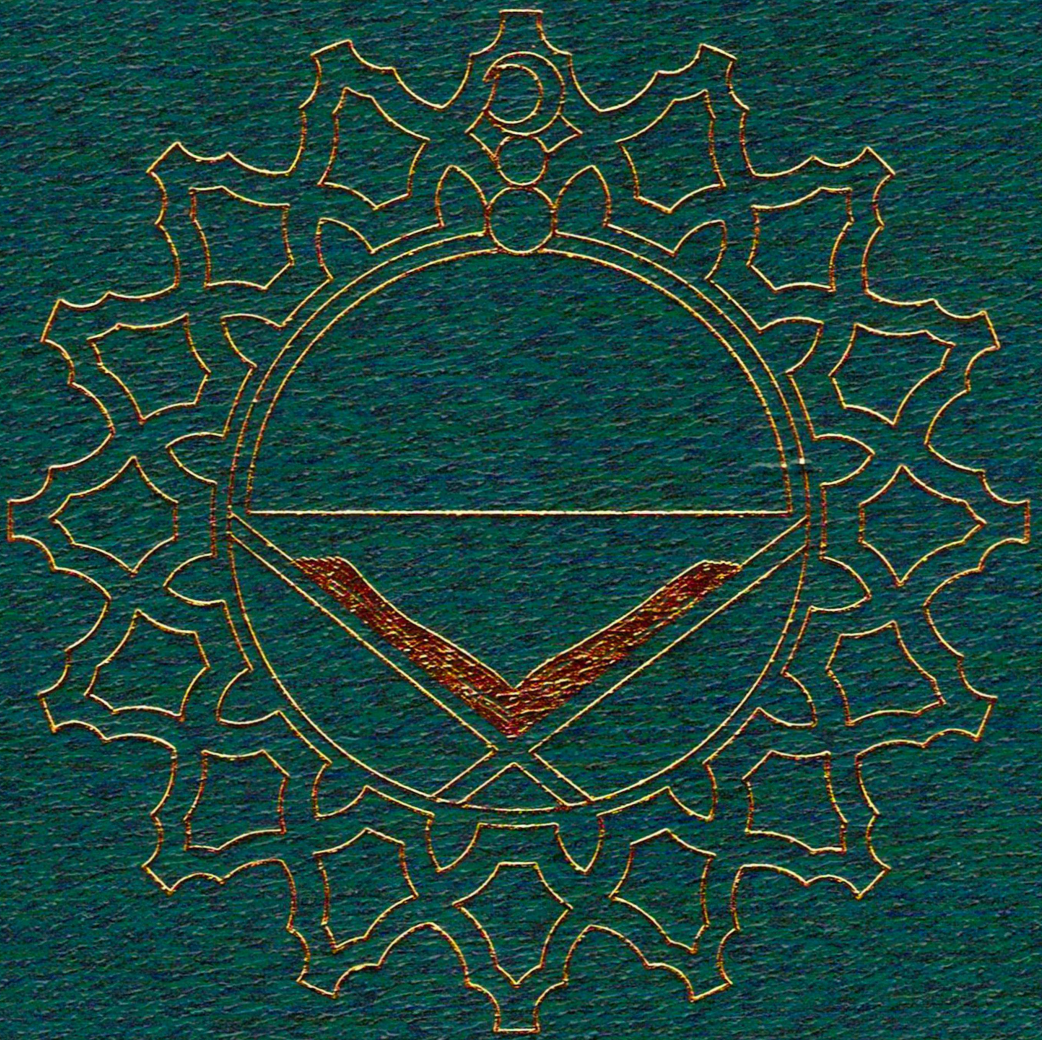

وإبراهيم الذي وفى

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

ضياء من العقيدة الإسلامية

(٢)

[وإبراهيم الذي وفى]

تأليف
الدكتور فرحات الجعبيري

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ـــ ١٩٩٤هـ

الإهـــداء

إليك أيّـها الشبـاب المسلم في كلّ أطراف المعمـورة أهدي هذا العمل المتواضع عسى أن يزيدنا إيماناً على إيماننا .

والله نســأل أن يجعلنـا خير خلــف لخير سلـف، وأن يجمعنـا وأنبياءه ورسله وأولياءه الصالحين في جنّـات النّعيم .

فرحـــات

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

الآيات من سورة الأنبياء

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

الحمـد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتـوب اليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنـا ومن سيّئـات أعمالنا، مـن يهده الله فلا مضـلّ له ومـن يضلل فلا هادي له، وأشهـد أن لاإله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

اللهم صـلّ على نبيّنا محمد وعلى آل محمـد كما صلّيت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم، وبـارك على محمد وعلى آل محمـد كما باركـت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد.

الحمد لله الذي جعل الجمل الثّلاث : لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله ـ صلىّ الله عليه وسلّم ـ وأنّ ما جاء به حق من عنـد الله، فاصلة بين الحـقّ والباطل، من تمسّك بها سـعد، ومن أعرض عنها تعس.

الحمد لله الذي جعل الدّين عند الله الإسلام.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (٣ آل عمران : ١٩).

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٣ آل عمران : ٨٥).

الحمد لله القائل:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

(١١٢ الإخلاص).

الحمد لله القائل:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ (٦ الأنعام: ١٥٣).

الحمد لله الذي كرّم الإنسان أيّما تكريم، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(١٧ الإسراء ٧٠).

الحمد لله الذي أرسل الرّسل مبشّرين ومنذرين، وجعل خاتمهم سيدنا محمّدا صلى الله عليه وسلّم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (٣٣ الأحزاب ٤٦).

الحمد لله الذي استجاب في هذا النّبيّ الأميّ دعوة خليله إبراهيم عليه السّلام إمام المسلمين

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(البقرة ١٢٩).

الحمد لله ولا إله إلاّ الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وبعـــد :

فيا طالب الاستقامة، يا من تضرّع لربّ العالمين آناء اللّيل وأطراف النّهار بقولك :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة ٦).

بعد أن تقرّ أنّك لا تعبد إلاّ إيّاه ولا تستعين بسواه.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٥).

هلمّ ـ رحمنا الله وإيّاك ـ إلى أنوار القرآن الكريم، عسى أن نقبس منها بقدر المستطاع، ما من شأنه أن يزيدنا إيمانا خالصا، ويبدّد من حولنا ما في الحياة الدّنيا من ظلمات بعضها فوق بعض.

لقد أحببنا ـ أيّها الأخ الكريم الحبيب الينا صلاحه في الدّين والدنيا والآخرة ـ في هذه الخواطر أن نعيش في رحاب سيّدنا إبراهيم عليه السّلام، في حملته الإيمانيّة على الوثنيّة الخلاّبة، وفي إرسائه قواعد البيت العتيق، وفي إقامته صرح الإسلام، وفي التّضحية من أجل ذلك بأغلى ما يضحّي به الإنسان، وفي ابتهالاته الزكيّة في السّراء والضّراء للذي يعلم السرَّ وأخفى.

في منهجنا مع هـذا النّبي الكريم بما جـاء في شأنه مبثوثـا في كتاب الله العزيز.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء ١٢٢).

ورجاؤنا من بـثّ هذه الخواطر، أن نتعايش سويّـا في رحاب تجربة إيمانيـة صـادقة ، لتكـون لنـا أحسـن أسوة كما شـاءت حكمـة العليّ القدير:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾

(٦٠ الممتحنة ٤).

وما أسمى هذه الأسوة لمن ألقى السّمع وهو شهيد :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(٥٠ ق ٣٧)

وذلك في عصر عملت الحضارة المادّيّة على زرع كل أنواع الشّبهات لتجتثّ النّاشئة المسلمة من جذورها الإيمانيّة الطّاهرة، ولتسخّرها بعد ذلـك في تيّـار المهـالك الجارف، ولتبقـى لاهثة وراء السرّاب، وهـي تحسب أنهّـا تحسن صنعا.

ولتكن خواطرنا كما ألمحنا من قبل حسب الخطوات التّالية:

تمهيد : من هو إبراهيم عليه السّلام ؟

المحور الأول : إبراهيم يحطّم الأصنام .

المحور الثّاني : إبراهيم إمام المسلمين.

المحور الثالث : من ثمرات العقيدة الرّاسخة .

المحور الرّابع : ابتهالات إبراهيم عليه السّلام.

الخاتمة : بعض العبر .

اللهمّ إنّ هذه جرأة منّا على كتابك وعلى خليلك، فاغفر لنا ما طرأ فيها من زلل إنّك أنت الغفور الرّحيم ،

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

(٢ البقرة ٢٨٦)

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣ آل عمران ٨).

تمهيـــد :

هل تعرف إبراهيم عليه السّلام ؟

يقول عزّ من قائل :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(النحل ١٢٠ ـ ١٢٢).

ذلك هو إبراهيم الـذي أراه الله ملكوت السّموات والأرض ليكون من الموقنين فكان .

ذلك هو إبراهيـم الذي أخذ من ربِّه الميثاق الغليـظ، وآتاه رشده، وأتمّ عليه نعمتـه، وجعله من أولي الأيدي والأبصـار، ومن عباد الله المصطفين الأخيار في الدّنيا والآخرة، وأخلصـه خالصة ذكرى الدّار، واتخّذه خليـلا، وكـان به حفيّـا، وآتـاه الله الحجّـة على قومـه، وآتـاه صحفا، وجعلـه من شيعة نـوح وآدم عليهما السّلام، ورفع درجـاته، وبوأّ لـه مكان في البيت فأذّن في النّاس بالحجّ، وجعل في ذرّيتـه النّبوّة والكتاب والملك وترك عليه في الآخرين، واستجاب لدعائه

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

(٣ آل عمران ١٦٤).

ذاك هو إبراهيم ما كان يهوديّا ولا نصرانيّا وإنّما كان من المسلمين إذ تبرّأ من الشرك ومن المشركين، فسلّمه الله من حرّ الجحيم، وكانت النّار عليه بردا وسلاما. ثمّ ذهب الى ربّه بقلب سليم، فاستجاب له ووهبه من الصّالحين، فصدق الرّؤيا، وتلّه للجبين، وفدى الله ولده بذبح عظيم، فكتبه ربّه في عداد المحسنين.

ذاك هو إبراهيم الذي وفّى، فأمره الله ليطهّر البيت للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود بعد أن رفع قواعده مع ولده إسماعيل، ثم أذّن في النّاس بالحجّ فجاؤوا رجالا وعلى كلّ ضامر ومن كل فجّ عميق

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾

(٢٢ الحج ٢٨).

ذاك هو إبراهيم صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، من عباد الله المؤمنين المحسنين، كريم أوّاه حليم منيب، إنّه لجدير بأن يكون إماما، وأن يكون أسوة حسنة لمن يرغب في التّمييز بين معسكر الكفر ومعسكر الإيمان، دون أن تنطلي عليه الحيل، وذلك ليترك الزّبد لأن الزّبد يذهب جفاء، وليستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٣ الرعد ١٧).

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(٢ البقرة ٢٥٦).

هذا هو أبونا إبراهيم ـ يا طالب الاستقامة ـ بشر رسول، أقرب ما يكون إلى الكمال، إذ الكمال لله عزّ وجلّ، جاءت خصاله التي حاولنا أن نجمع في هذا التّعريف، مبثوثة في خمس وعشرين سورة من القرآن الكريم وذكر فيها تسعا وستّين مرة : البقرة ـ آل عمران ـ النّساء ـ الأنعام ـ التّوبة ـ هود ـ يوسف ـ إبراهيم ـ الحجر ـ النّحل ـ مريم ـ الأنبياء ـ الحجّ ـ الشّعراء ـ العنكبوت ـ الأحزاب ـ الصّافّات ـ ص ـ الشّورى ـ الزّخرف ـ الذّاريات ـ النّجم ـ الحديد ـ الممتحنة ـ الأعلى.

فما لنا معاشر المسلمين اليوم اشرأبّت أعناقنا تبحث عن الهداية في كل ما هبّ ودبّ من عطاءات الحضارات القديمة والحديثة ظانّين بذلك أنّنا نواكب المعاصرة والمعاصرين، ونحن في الحقيقة نرتكس بأنفسنا، فندمّرها ونهلك العالمين الذين اختارهم الله لنكون شهداء عليهم، ولنسمو بهم إلى درجات من اختارهم الله أسوة للنّاس أجمعين.

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(٢٢ الحج ٧٨).

نعم هـذا هو أبونـا الذي سّـمانا مسلين ، فلنكن مسلمين بحقّ في نوايـانا، وأقـوالنا، وأفعـالنا حتّى نلقـى الله وهو عنّـا راض كما كان الأمر لإبراهيم عليه السلام.

سلام على إبراهيم إنّا كذلك نجزي المحسنين.

المحور الأول : إبراهيم عليه السّلام يحطم الأصنام

١ ـ من الفطرة السّليمة إلى الادراك الواعي

يقول الله عزّ وجل :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(٣٠ الروم ٣٠).

ويقول أيضا :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

(١٧ الإسراء ٤٤)

تلك هي الفطرة السّليمة ، كلّ المخلوقات تسبّح بحمد الله على طريقتها ، ولكنّنا نعاشر البشر لانفقه تسبيحهم، وهل يفقه الإنسان إلاّ ما يسّره له الرّحمن.

نعم السّماوات تسبّح ، والأرض تسبّح، وكل الجماد يسبّح، والنّبات يسبّح، والحيوان يسبّح، أي يعبد الله حقّ العبادة، وينزهه عن كل نقص.

ألم يقل عزّ من قائل :

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢ البقرة ٧٤).

وألم يقل أيضا :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(٥٩ الحشر ٢١).

نعم تلك هي الفطرة السّليمة ، من الحجارة ما يهبط من خشية الله ، والجبال لو تنزّل عليها القرآن لرأيتها خاشعة متصدّعة من خشية الله ، لأنّ الله خلقها هكذا ، وهي تدين له بالخلق ، وتعترف له بالفضل .

كذا فطرة الحيوان ، وتأمّل معي في موقف هدهد سليمان من ملكة سبأ وقومها :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن

دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢٧ النمل ٢٢ ـ ٢٦) .

أليست فطرة هذا الهدهد هي التي دلّته على أنّ السّجود لا يكون إلا لله الذي لا إله إلاّ هو .

كذا كانت فطرة إبراهيم عليه السلام سليمة نقية شفّافة طاهرة زكيّة، ألم يره ربّه ملكوت السّموات والأرض ليكون من الموقنين

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ
مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (٦ الأنعام ٧٥).

نعم إنّه لم يكن يهودياً إذ لم يهوّده أحد ، ولم يكن نصرانياً إذ لم ينصره أحد، وأنّى لإبراهيم أن يكون يهودياً أو نصرانياً قبل أن توجد اليهوديّة والنصرانيّة ،

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ

﴿ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(٣ آل عمران ٦٣ ـ ٦٧).

كذلك لم يتسرب إلى فطرته الشّرك رغم أنّه كان يعيش بين ظهراني قوم مشركين، اتّخذ بعضهم الكواكب أربابا من دون الله، واتّخذ البعض الآخر أصناما آلهة من دون الله، وعلى رأس هؤلاء أبوه الذي كان سادن المعبد وسيّده.

إنّه فضل الله على إبراهيم عليه السّلام كما ذكر ذلك يوسف عليه السّلام من بعد

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١٢ يوسف ٣٨).

إنّه فضل الله عليه، إذ لم تتدنّس فطرته كما تدنّست فطرة الكثير من النّاس، وكما تدنّست فطرة أبيه وقومه، وقد شاءت حكمة الله لهؤلاء القوم الخلاص فحفظ إبراهيم ليكون لهم أسوة تخرجهم ممّا أصاب فطرتهم من دنس من جراء ما اتّخذوا من أرباب من دون الله، ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون.

وتبدأ الجولة كما يصوّر القرآن الكريم ذلك بين الفطرة السّليمة وبين الفطرة المدنّسة المرتكسة، وذلك بعد أن أراه الله ملكوت السّموات

والأرض لأنّ المعركة ليست هيّنة، والشرّك متجذّر في قلوب القوم.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ
أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ
أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ
سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ

﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(٦ الأنعام ٧٤ ـ ٨٣).

إن قضيّة العقيدة ظلّت تشغل بال إبراهيم عليه السّلام وتشدّه لكلّ ما يدور حواليه، ما لهؤلاء النّاس يعبدون الكواكب؟ لعلّ في عبادتهم بعضاً من الحقّ، لم لايقارن بين ما في فطرته وما يحسّ به في مكنونه، وبين ما في واقع النّاس؟

نعم تأمّل في أبرز الكواكب، إنّه يتميز بالرفعة ويتدفّق نورا، وبه يهتدي المهتدون إذا ضلوا السّبيل، ألا يصلح أن يكون ربّاً، نعم إنّه يشق عباب الظلاّم، ويسيطر على الكون، ويشدّ النّفس إليه، وظل يتأمّل هذا الكوكب لا كما اعتاد التّعايش مع آلاف الكواكب التي تبدو في كبد السّماء، ظلّ يتأمّل في شأنه تأمّل الباحث عن الحقيقة، وطالت اللّيلة، فهي ليست كبقيّة اللّيالي وهو يرقبه بدقّة، أيمكن أن يكون هذا الكوكب ربّاً ؟

وعندما انبلج الفجر وبدّد نور النّهار سجوف ظلمات اللّيل لم يبق للكوكب أثر، إنّه أفل، إنّه اختفى، لم يعد يتدفّق نورا، ولم يعد صالحاً ليهتدي به.

هنالك تحرّكت الفطرة السّليمة وقالت لا أحبّ الآفلين، لأنّ

المعبود الذي تحبّه الفطرة لا يجب أن يغيب، إذ إلى من يكون الملجأ في حالة غيابه، والعبد دائم الإحتياج الى معبوده هكذا قالت الفطرة، وخلص إبراهيم الى الأبد من معبودات قومه وقد أراد بهذا أن يسلكوا مسلكه في الخلاص لكن أنّى لمن تحجّرت فطرهم من خلاص !

نعم لقد أحبّوا الآفلين، وتعلّقوا بهم تعلّق العبادة، ومعلوم أنّ العبادة أسمى درجات الحبّ، وظلّ هؤلاء القوم في حبّهم يعمهون.

لكنّ إبراهيم بفطرته السّليمة أبى إلاّ أن يجتاز بهم مرحلة أخرى مفحمة أكثر، أليس القمر أجلى الكواكب من على وجه الأرض، لم لايجرّب عبادته على مرأى ومسمع من القوم عسى أن تستفيق فطرهم إذا انبلج الحقّ ؟

نعم إن القمر في ليالي تمامه عندما يصير بدرا منيرا يسيطر على محيط الإنسان، ويرفع عنه كلّ أنواع الوحشة النّاجمة عن ظلام اللّيل، نعم إنّه أهل بأن يطمأنّ إليه، ومهما يكون من أمر فهو أبرز من الكواكب بل قل إنّه سيدّها في كبد السّماء، يجمع بين الرّفعة والنّور والأنس.

ولكن أنّى لفطرة إبراهيم السّليمة أن تسلّم، والكامن في مكنونها يلهم بأنّ المعبود بحقّ يجب أن يكون أعلى بكثير من هذا القمر، نعم إنّه لا يجب أن يغيب، وهذا القمر يشترك مع الكوكب في الأفول فهل يصلح أن يكون إلها ؟ كلا !

هنالك يتدرّج إبـراهيم بقومه فيطلب الهداية مـن ربّه الذي يجده في ضميره وفطرته، ربّه الذي يحبّـه لكنّ قومه لم يجدوه بعد لا في فطرتهم ولا في وعيهم.

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

(٦الأنعام ٧٧).

ثم تأتي المرحلة الفاصلة التي تعلّم النّـاس كيف يربطون بين الفطرة وبين الوعي والإدراك.

إنهّا الشّمس في هـذه المرّة، فلتحكّ هي الأخـرى على محكّ الفطـرة السّليمـة، وهل تصلح حسب ذلكم المعيار الـرّبـاني الدّقيق أن تكـون إلها؟

إنهّا مـركـز الكـون، وعليـه مـدار جميـع الكـواكب في المجمـوعـة الشّمسيّة، وحتّى من لم يدرك هـذا المعنى إذا خيـرّ بين أن يعبد النّجم أو القمر أو الشّمـس فما نتصوّر أنّه يقـدّم على الشّمس بنـاتها، ولكنّه الإنسان مخلوق غـريب إذا دنّست فطرته، فهو عبرُ تـاريخه لم يتأخّر لا عن عبادة الأم ولا عن عبادة البنات.

ويأتي دور الشّمس لتنـدحر أمـام معيـار الفطرة السّليمـة، ذلك أنّ أهمّ مستلزمات المعبود بحقّ مفقـود، وتبقى هي هي بالنّسبة إلى الكلّ الغياب.

هنالك يربط إبراهيم بين الفطرة والإدراك العقلي فيصرُخ بأعلى صوته ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ويعتبر أن الحجّة قد قامت على قومه.

تلك هي العقيدة الرّاسخة تبدأ بالرّفض الصّريح لما يجب أن يرفض، أليس هذا هو الجزء الأول من كلمة التّوحيد (لا إله) وهاهو إبراهيم وهو من شيعة آدم ونوح عليهما السّلام يقولها صريحة على مرأى ومسمع من قومه مهما كان ثمن التّضحية وسيكون غالياً .

ماذا يقول ؟ ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي قاطع الصلة بيني وبين جميع معبوداتكم، فلا حبّ ولا ولاية، ولا عبادة، بل هو الكره، والعداوة، والاحتقار، لأنّه اتّضح بالدليل الحسيّ والعقليّ القاطع أنها ضرب من الشرّك بالله العليّ العظيم.

نعم إنّه الرفض المطلق لكل ما يمتّ بصلة لهذه المعبودات التي ظلّ قومه على تأليهها ردحا من الزمن ليس بالقصير.

ومثل هذا الرّفض يعرِّض صاحبه للخطر ولا شكّ عند هؤلاء القوم الذين أحسّوا أنّ إبراهيم قد اجترأ على آلهتهم التي يعبدون.

ولكن قبل أن يتحوّلوا إلى المحاجّة أو التّعنيف باح إبراهيم بالقسم الثاني من عقيدته ألا وهو جانب الإيجاب والإقرار (إلاّ الله)

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾

هكـذا يصدع بـالعقيدة السّمحـة الـزكيّة بعـد أن علّم قومـه كيف يربطـون بين الإدراك الفطري الكامن في الكينـونة وبين الإدراك الحسيّ العقليّ الذي يعتمد على الدّليل الـواضح للعيان ، وهو في هذا يتحمّل مسؤوليته الكـاملة، إذ يتكلّم بصيغة المفرد المتكلّم، بصيغـة الواثق ممّا يقـول ويعتقد، ذلك هـو الإسـلام يعلّمه إمـام المسلمين للمسلمين في كل زمان ومكان، توجّه كامل للّذي فطر السّموات والأرض.

تـوجّه بـالقلب ، وتوجّـه بالقـول ، وتوجّـه بالفعل للـذي تتجلىّ عظمتـه في كلّ شيء، ومن بينها خلقـه للسّموات والأرض من عـدم وبـدون سابـق مثال، ومن هـذه بعض صفـاتـه جديـر بأن يعبـد وأن يحبّ، لأنّـه لا يغيب عن معبـوداتــه، كلّما تـوجّهت اليـه مخلصـة في السّـراء والضّـراء ينظر اليها بعين الرحمة، ويهديها إلى أقوم السبل.

وبهذا يرسي إبـراهيم عليه السّلام أسس الحنيفيّـة السّمحة التي تميل عن الباطل لتندفع الى الحقّ وتستقرّ عليه إلى الأبد.

ثم يعقّب بالتذكير مرّة أخرى أنّ المشركين الذين اتّخذوا من دون الله أربـابـاً في واد، وأنه في واد آخـر، هـو وادي الإيمان الصّـادق، معنى ذلك أنّ قومه في عالم، وهو في عالم آخر.

وبمثل هذا الموقف يتحـوّل الوضع في البلاد، فبعد أن كـانت فيلقاً واحدا، هو فيلق الشرّك، صارت تقوم على معسكرين متقابلين:

ـ معسكر إبراهيم ومعه ربّه وهو معسكر الإسلام.

ـ ومعسكر القوم بكلّ ما أوتوا من قوّة وهو معسكر الكفر .

وهذا ما يحدث دائما عند انبلاج رسالة من الرسّالات، أو دعوة من الدّعوات التّصحيحية.

واذا ما تمّ الانقسام فلا بدّ من اندلاع المعركة بين المعسكرين إن عاجلاً أو آجلا، وقد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل، وقد تكون بهما معاً.

وتبقى المعركة إلى هذا الحدّ بين إبراهيم عليه السّلام وقومه عقديّة فكريّة إذ هو وإن حقّر آلهتهم وأكدّ لهم أنها لاتصلح للعبادة، فإنّه لم يصبها بسوء ماديّ من شأنه أن يثير ضغينة القوم بشدة لذلك بقى الأمر في مستوى الجدل والمحاجّة.

ما هي حجّتهم في هذه المجادلة يا ترى ؟

إنهّم وقفوا من إبراهيم موقف المشفق، ذلك أنهّم بيّنوا له أنهّم يخشون عليه من آلهتهم أن تصيبه بسوء، ومعلوم ما يتصوّر النّاس إلى اليوم من تأثير النّجوم في مصائر النّاس وحظوظهم، فظلّوا يعزفون طويلاً على هذا الوتر.

نعم إنهّم يحبّون إبراهيم، إنه ابن سادن معبدهم، وكانوا جادّين فيما يقولون، لأنهّا تلك عقيدتهم بحقّ، وهم بذلك يرجون أن يثنوا

إبراهيم عن هذا التصوّر الجديد للمعبـود، هذا التّصوّر الذي لم يألفوه لأنّ فطرتهم تبلّدت وتدنّست من جراء الشرك بالواحد الدّيّان.

وكذا مـا يزال الأمر في كثير من بيئـاتنا الإسلاميّـة دون أن نتحدث عن البيئـات التي مـا تـزال تتخبّط في ديـاجير الظـلام، فمتى يستفيق المسلمون المخلصـون لتخليص هؤلاء وأولئك ممّـاران على قلوبهم كما فعل إبراهيم مع قومه.

لقد أراد القـوم أن يثيروا الخوف في إبراهيم، ولا شـكّ أنهّم قصّوا عليه من الأحداث الكثير التي تثبت أنّ أناسا قبلـ أصيبوا بسوء مرير نتيجة تطاولهم على الآلهة.

ولكن أنّى لإبــراهيم عليـه السّـلام أن يقع في أحــابيل تصّـوراتهم السخيفــة، وأنّى للكــواكب التي تأفل ولا تستطيـع أن تضمن حتّى لنفسها استمرارية البقاء أن تلحق بغيرها الضّـرر أو الخير ؟

وهنالك ـ وكذلك كلّ مؤمن ربّـاني ـ يقلب الحجّة على قومه (فأي الفريقين أحقّ بـالأمن) ؟ ويبين لهم أنّ الذي يرعاه من لا تأخـذه سنة ولا نوم لايمكن أن يخشى مكـر المـاكرين مهما كان ، ولكن أولى بهم أن يخافوا الله رب العالمين إذ هو الذي خلق الشّمس والقمر والنّجوم، وخلقهم أجمعين، وهو القادر على أن يفعل بهم مـا يشاء لأنه على كل شيء قدير.

فمن حينئذ يكون أولى بالأمن والطمأنينة ؟ إبراهيم أم قومه ؟ إنها الحجّة الدامغة التي رجّحت كفّة معسكر الإيمان رغم أنّه لايضم إلا رجلا واحدا لكنّه في كنف ربّ العالمين بينما يتزعزع كيان المعسكر الآخر رغم كثرة العدد ، لأنّه محروم من معيّة الله عز وجل، ولكن أنّى لهؤلاء أن يسلّموا رغم قيام الحجّة، وأنّى لإبراهيم أن يسلّم لهم، وتستمر المعركة.

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(٢ البقرة ٢٦٠).

ويلجأ إبراهيم عليه السّلام إلى ربّه ليزيده إيمانا على إيمانه، وما كان الله ليخيّب عباده المخلصين، إنها القمّة في الإخلاص، وهي السّبيل الأوحد إلى الخلاص.

إنّه اليقين المطلق في قدرة ربّ العالمين. ولم لانقولها؟ إنّه تعامل الحبيب مع الحبيب. ماذا يا إبراهيم ؟ لقد صدقت عندما قلت لأبيك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ ، وأي حفاوة أسمى من هذه، تطلب ـ دلالا ـ أن تتعرّف على سرّ الصّنعة الإلهيّة فلا يحرمك ربّك من ذلك.

إنّه معنى سام لا يدركه إلاّ من جاهد في الله حقّ جهاده، وما يزال إبراهيم دؤوباً في جهاده.

إنّه الشّوق الرّوحي إلى ملابسة السّر الإلهي أثناء وقوعه العمليّ .

إنّه إبراهيم ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية كيفيّة الإحياء.

وما كان الله ليخيّب خليله بعد أن أقر أنّه على يقين من قدرة الله، ولكنه يريد أن يطمئن قلبه ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾. البقرة ٢٦٠

ويطمئنّ قلب إبراهيم، أي يرتقي درجة أخرى في هذه الطمأنينة التي ينشدها كلّ إنسان إذ هي إكسير الحياة، وبدونها تتحوّل حياة الإنسان إلى جحيم. وإن أوتي من متاع الدُّنيا ما أوتى.

ويمتثل لأمر الله عزّ وجل فيمسك أربعة من الطّير، ويصرّهنّ إليه ليتعرف على صفاتهنّ ـ لا ليبتلي ربه، كلا وحاشا ــ ولكن ليطمئنّ قلبه، ثم يذبحهنّ بنفسه، وتفارق الروح الجسد، إذ لاحراك، ثمّ يقطّع هذه الطّيور إرباً، ويخلط بينهنّ، وينطلق ليضع على كل جبل منهنّ جزءا.

إنّه اليقين يتجلىّ في جميع حركات إبراهيم عليه السّلام. إنّه الإمتثال المخلص لأمر رب العالمين. إنّه الشّوق إلى معرفة الحياة. ويبقى الإحياء سراً من أسرار الله إذ أنى لمدارك الإنسان المحدودة أن تعرف كنه اللامحدود. ذلك عالم آخر استأثر الله عزّ وجل بعلم حقيقته.

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(١٧ الإسراء ٨٥).

ويعود إبراهيم بعد أن امتثل الامتثال الكامل لأمر الله ويدعو هذه الطيور، سبحان الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، إنهّا طيور بكماء لاتفقه من كلام البشر شيئا حتّى وهي على قيد الحياة، فأنّى لها أن تستجيب وقد ماتت بعد أن ذبحها بنفسه، إنّه اليقين، اليقين الذي تفتقده البشريّة اليوم، رغم أنهّا أولى باليقين من الذين مروا على وجه الأرض لما كشف الله من أسرار لإنسان اليوم، ولكن . . .

نعم يدعو، وتأتي الطيور سعياً، تقول بلسان حالها ها أنذا قد أحياني الذي يحيي ويميت.

وتتجلىّ آثار قدرة الله عزّ وجلّ لكن دون أن يدرك إبراهيم طبيعة الإحياء، ولا طريقتها، ذلك أمر الله لا يرى الإنسان إلا آثاره.

ويترك إبراهيم الغيب المحجوب لعلاّم الغيوب، ويدرك وهو متيّقن من قبل أنّ الله عزيز حكيم.

وهكذا يمنح إبراهيم التجربة الذاتية المباشرة ليزداد يقينا على يقين بمصداق قول الله عزّ وجلّ

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(٢ البقرة ٢٢٥).

ويـاليت كل البشر يتأسـون يإبراهيم عليـه السّـلام عنـدما تنتـابهم أحـوال الحيرة، ويبحثـون عن اليقين فيلجـأون إلى من لا يعلم الحقّ سواه ، فيبدّد ظلمات حيرتهم بما ينير لهم السبيل وللعالمين.

ولكنّ الإنسـان قتل مـا أكفـره، يلجأ إلى غير خـالقـه فيقع في مـا لاتحمـد عقباه، أمـا المتقدّمـون فكـانوا يلجأون إلى السحـر وما يشبـه السّحـر فيضلون ويضلّـون، وأمـا المتأخّرون المعـاصرون فيلجأون إلى عقولهم المحدودة فتكشف لهم من نواميس الكون المـاديّة الشيّء الكثير ممـا يزيـدهم غـرورا، فيقـارعون عـالم الغيب لاكتشـاف أسرار النّشأة الأولى ومـا إليهـا فلا يقعـون إلاّ على السّخـافـة تلو السّخـافـة، واذا بالإنسـان المكرّم يصير في علمهم الزّائف مـن سلالة القـردة، والله عزّ وجلّ أغنى الإنسـان عن كلّ ذلك بما أوحى إليـه من سرّ هـذه النّشأة الأولى، إنّه من آدم وآدم من سلالة من طين، ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

(٢٣ المؤمنون ١٢ ـ ١٣).

﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ

نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٢ السجدة ٦ ـ ٩).

لقد اطمأن قلب إبراهيم بحقّ لأنّه سلك المسلك الصّواب، ولن تبلغ قلوب البشريّة الطمأنينة الحقّ إلاّ إذا سلكت مثل هذا المسلك الرّبانيّ الصّادق .

وما كان قوم إبراهيم أن يطمئنّوا إلى ما وصل إليه من سلامة اليقين وهو يقارعهم بالحجج الدّامغة الملموسة، فها هو معهم لم تصبه آلهتهم بأدنى سوء بل هم المعرّضون للسّوء من لحظة لأخرى، نتيجة كفرهم بربّ العالمين فاطر السّموات والأرض وما فيهنّ، ومن فيهنّ بما في ذلك كواكبهم التي يؤلهون، وهي لا تفتأ عن تسبيح خالقها آناء الليل وأطراف النّهار لاتعلم عن عبادتهم شيئا .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨).

وترتقي المحاجّة في هذه المرة إلى أعلى درجة من درجات السلّم الاجتماعي، وأنّى للملك أن يسكت عن مثل ما سمع وهو صاحب النفوذ في البلاد.

لقد هاله ما سمع، أنّ واحدا من رعيّته يقال له إبراهيم سفّه أحلام القوم، وتطاول على آلهتهم مصدر عزّهم وسلطانهم، وتبرّأ منها ومن أتباعها على عيون الملإ.

إنّ مثل هذا لايمكن أن يسكت عنه، ولا يمكن أن يوكل أمره إلى النّاس، بل على الملك أن يقف موقفه الحازم وأن يوقفه عند حدّه، وهل من إله غير هذه الكواكب وتلكم الأصنام، إنّ مثل هذا الموقف يهدّد الملك في ملكه، فليضرب الضربة القاضية ولينتقم للآلهة وللملكه وللرّعيّة، هكذا سوّلت له نفسه، وأعانته على ذلك حاشيته، وكل من رفع إليه القضيّة، المهمّ أنّ هذا الفتى يجب أن يوقف عند حدّه، ويجب أن يردع ردعاً مبينا، وليكن ذلك عن طريق المحاجّة في المرحلة الأولى.

إنّه الغرور بالملك، وكذا كل غرور يعمي ويصمّ. فعوض أن تكون النعمة مصدر شكر واعتراف بالفضل تتحوّل عند المغرورين إلى منطلق كفر وطغيان، وبهذا الشعور بالعظمة انطلق يسأل إبراهيم عن ربّه الذي استبدل به آلهتهم أجمعين.

فيأتي جواب إبراهيم ساطعاً واضحاً وضوح الشّمس في كبد السماء

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨).

وهو يشير بذلك إلى المعنى الرّاسخ في عقيدته، والمتمثّل في أن سرّ الحياة والموت لا يعلمه إلاّ الله، ذلك أنّ الله هو الذي ينشيء الحياة في جميع العوالم الحيّة من نبات وحيوان وغيرها، ويزيل الحياة بالموت ،

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(٢٧ النمل ٦٤).

وبدت الحجة جليّة أمام الملك، ولكن هل يمكن على رفعة مكانته أن يستسلم من الضّربة الأولى؟ كلاّ . فلا بدّ من العناد ، وإن كان قائما على الزّيف. ماذا تقول الرّعية يا ترى؟ إنّه ضياع الملك أو الهيبة على الأقلّ، أيغلب من هذا الفتى في اللّحظة الأولى من المناظرة ؟ لا سبيل إلى ذلك.

ولمعت الخاطرة في ذهنه، ومثل هؤلاء النّاس لاينقصهم الذكاء ، ولكنّهم يسخّرونه في الدهاء ليحافظوا على ملكهم، وليرفع من شأنهم في عين أنصارهم الذين يهتفون بحياتهم في كلّ حين لأنّهم يعتبرونهم مصدر نعيمهم وسعادتهم.

ما هي هذه الخاطرة ؟ إنّها في منتهى السّخف ، إذا تأمّلنا في

كنهها، ولكنّها في منتهى التّأثير في الأبصار إذا وضعت في محيطها، نعم الملك أيضا يحيي ويميت، أليس أنّه إذا قرر الحكم بالإعدام على أحد وقد يكون إبراهيم، فإنه حكم نافذ وهو بهذا يميت، وأليس أنّه إذا أراد العفو عن هذا المحكوم عليه بالإعدام فإنّه حكم نافذ وهو بهذا يحيي.

سبحان الله، كيف يسوّل الغرور للمغرور، شتّان بين المعنى الذي يشير إليه إبراهيم عليه السّلام ، وبين المعنى الذي لاذ إليه الملك ، وأنّى للأوامر بالأحكام أن تكون مثل الإنشاء من عدم والإفناء المطلق.

إنّه الغرور، ألا يعلم الملك من تجربته أنّه كم من مرّة يعزم على إعدام أحد ولكنّ واهب الحياة لايريد فلا تتمّ إلاّ إرادة واهب الحياة، وكم من مرّة يعزم الملك على العفو ولكنّ السّيف يسبق ذلك لأنّ الأجل وهو بيد الله قد حان.

ألا يعلم الملك، أنّ الملوك لو كانوا قادرين على الإحياء الحقّ ما مات جده الأول أبدا وما وصل إليه الملك في يوم من الأيامّ ، نعم إنّه يعلم ولكنّه يكابر.

وأمام هذه المكابرة على هذه الحجّة الأولى التي لايمكن أن تظهر آثارها بالملموس لأنّ الإنشاء والإفناء من أسرار الغيب يلجأ إبراهيم

إلى حجّة ملموسة دامغة يمكن أن تلجم الخصم الحجر أمام أنصاره أجمعين، وكذا حجّة المؤمن الرّبانيّ الملهم من ربّ العالمين في كل زمان ومكان.

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨).

الناس جميعا يعلمون هذه الحقيقة، لأنهم يعايشونها صباح مساء، من قلّ علمه ومن كثر، وإبراهيم ينسب هذا الأمر إلى الله الواحد الدّيان الذي دان إليه ، وأعتبر أمامهم أنّ التوجّه إلى غيره شرك.

ألم يقل لهم إنه فاطر السّموات والأرض، ألم يعلموا أنّه خالق كلّ شيء، فهو الذي خلق الشّمس، وهو الذي أرادت حكمته أن تأتي للنّاس في هذه الأرض في كلّ صباح من المشرق، وأن تغيب عنهم في المساء من المغرب، إنّها حركة رتيبة ألفها النّاس، وغفلوا عن خالقها ومدبّرها ، وهذا إبراهيم يذكّرهم بهذه المعلومة التي تكاد تكون فطريّة، ولكن في هذه المرة لدحض حجّة الملك الذي زعم أنّه يحيي ويميت كما يفعل ربّ إيراهيم عليه السلام.

وتندحر الحجّة ، ويغيب الذكاء، ويتلجلج اللّسان، وبنكدح العقل محاولا أن يتطاول بحجّة تقرع الحجّة، ولكنّه الفراغ، ولكنّها الهزيمة النكراء بالنّسبة الى الملك، والظّفر المبين بالنّسبة إلى إبراهيم،

ويظل الملك فاغرا فاه ، لاينبس ببنت شفة، مشدوها ، مفضوحا، تجاه نفسه، وتجاه أنصاره.

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨) .

بينما تتجلّى ابتسامة النّصر على وجه إبراهيم، ويحمد الله ربّ العالمين الذي آتاه رشده وأيّده بنصره. ذاك لأن إبراهيم مدّ يده إلى الهداية، وظلّ يسعى إلى الرّبط بين فطرته التي لاتحب الآفلين، وبين وعيه الذي يبحث عن اليقين، بينما طمس الملك فطرته ودنّسها بعبادة غير ربّ العالمين، فلم يزده ذلك إلا ضلالا على ضلال ، وضاعت منه الحجّة، بعد أن راوغ في المرّة الأولى، وظنّ أنّه منتصر وذلك وقت أن كان في أشدّ الحاجة إلى الحجّة

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢البقرة ٢٥٨).

ذاك هو إبراهيم، وقد هداه ربّه واصطفاه، يعلمه دروسا إيمانيّة صادقة لا يعمل فيها الزّمن بالبلى، بل تظلّ الأنوار السّاطعة منها تضيء سبيل الذين يعتنقون ملّة إبراهيم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ألم تنبع من هذه المناظرة وغيرها من المناظرات الواردة في كتاب الله العزيز جميع مناظرات المسلمين مع فيالق المشركين والمنافقين واليهود والنّصارى والمجوس وغيرهم حيثما حلّت كلمة الإسلام يحملها

مسلمون صادقون لا يتحوّلون إلى إعمال السّيف إلا بعد إقامة الحجّة، فيؤيدهم الله بفضله، ولك ـ يا طالب الإستقامة ـ في المناظرات الإيمانيّة المبثوثة في تراثنا الإسلامي المجيد، خير دليل على ما نقول فلتعد إليها في مظانّها والله ولي التوفيق.

٢ ـ من القول إلى الفعل

ما يزال إبراهيم يتدرّج مع القوم ويقيم عليهم الحجّة تلو الحجّة

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(٦ الأنعام ٨٣) .

ولكن قومه قد ران على قلوبهم، وما يزالون في طغيانهم يعمهون ، وأصنامهم يعبدون.

فما الحيلة ؟ ولم ينفع الوعظ والتوجيه، ولم تفد الأدلّة البّينة لا الملك ولا الرغيّة، لم يبق إلاّ التحوّل إلى الفعل، والانتصار العمليّ للعقيدة الإيمانيّة.

رأوا إبراهيم يتخلى عمّا يعبدون من الكواكب، فلم يتغيّر موقفهم ذلك لأن النّجوم باقية على حالها ولا يمكن لإبراهيم أن يغيّر من وضعها شيئا، وإن حقّرها بين أيديهم ولم يصبه سوء.

رأوا إبراهيم يناظر الملك، وينتصر عليه ويفحمه، لكنّ ذلك لم يغيرّ في ملكه، فهو الملك صاحب السلطة في البلاد.

فليعبد إبراهيم ربّه، وليعبدوا أربابهم، وكفى، ولكن أنّى لإبراهيم أن يقف عند هذا الحدّ ، وهو رسول من ربّ العالمين، فليحاول محاولة أخيرة مع أبيه لعلّه يحوّله إلى دائرة الإيمان نعم إنه سادن المعبد، ولو اهتدى فلا شك انّه متبوع، فإن لم ينجح مع السلطة الزّمنية فلعله ينجح مع السلطة الرّوحيّة.

أ ـ تصرّف إبراهيم مع أبيـــه:

قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ
فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾

(١٩ مريم ٤١ ـ ٤٨).

هاهو إبراهيم يقف وجها لوجه مع أبيه، وهو رمز السلطة الروحية في البلاد، ومهما كبر الولد فهو صغير في عين أبيه، إنها لمهمة إيمانية في منتهى الصعوبة، إذ يتكامل عاملان يدفعان إلى الرفض ، عامل السلطة الروحية وعامل الأبوة، وواحد منهما كاف ليكون من أشد الحواجز، فما بالك إذا اجتمعا في شخص واحد.

إنّ إبراهيم لأوّاه حليم ، فلا يمكن أن يبدأ ولـيّ نعمته والذي كان سببا في وجوده إلاّ بالحكمة والموعظـة الحسنة، وهذا المشهد الوارد في سورة مريم يفصـح بجلاء عن أبرز مراحل هـذه المحاور الإيمانيّة بين إبراهيم وأبيه.

يبدأ المشهد بتقرير حقيقتين عن إبراهيم عليه السّلام، إنّه صدّيق ، وإنـه نبيّ، لقد جمع بين المدد الإلهي المبـاشر عن طريق الـوحي، وبين خصلة بشريـة راقية هي الدرجـة العاليـة في التّصديق بما يأتي من رب العـالمين. ذاك هـو نمـوذج الأنبيـاء والـرّسـل جميعـاً، أولئك الـذين اصطفاهم ربّـهم ليكونوا أسوة للعالمين.

وتأتي الإشارة الأولى من الصّدّيق النّبي لأبيه قمّـة السلطة الرّوحية في البلاد بنبرة نـديّة شجيّة هـادئة ملـؤها التّلطّـف والتـّأدّب والحنـان (يا أبت) ويستعـد الأب للتّلقي من هذا الولد، فيغتنم الابن الفـرصة السّانحة ويثير العجب لدى أبيه مـركزاً على خصال الأصنام التي يعبد الأب دون أن يذكـرها باسمهـا، وما هي الخصال التي يختـار إبراهيم (مالايسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا).

إنّه تعريف بحقيقة معبودات أبيه بطريقة مرنة اعتمدت على المسلك غير المباشرد إذ لم يقـل لأبيه لم تعبد أصـمّ أعمى عاجـزا، وانّما اعتمد أسلـوب السّلب القـائم على النّفـي ، ووقع ذلك ألطف على السّمع،

وإبراهيم في حاجة إلى ذلك لأنّه يريد أن يكسب أباه، إذ يعتقد أن وراء كسبه مغنما عظيما لدعوته الإيمانيّة.

وإبراهيم بهذه الطريقة الإنكارية اللطيفة يريد أن يثير جانب العقل البشري في أبيه ، إذ كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يعبد ما هو دون الإنسان بل ما هو أدنى من الحيوان، إنها الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا يتوفّر فيها أيّ مقوّم من مقومات من يستحق حتى مجرد التّقدير، فكيف يتوصل بها رغم ذلك الى مستوى أن تعبد ! نعم إنها لاتغني عن الذين يعبدوها شيئا، بل هم أولياء نعمتها إذ يرعونها آناء الليل وأطراف النهار بالتنظيف وما إلى ذلك، ممّا يجعل حولها هالة لا دخل له فيها.

تلك المشاعر الكامنة عند أبيه وعند كلّ إنسان أراد إبراهيم أن يثيرها فى الإشارة الأولى.

ثم في الإشارة الثّانية : ينتقل بأبيه عل نفس المسلك اللطيف (يا أبت) إلى حقيقة أسمى، وفي هذه المرة تتعلق بابنه وفلذة كبده، والآباء من طبيعتهم لايقبلون أن يتفوّق عليهم سوى أبنائهم فإنهم يطربون بتفوّقهم بل يظلون طول حياتهم يعملون على تحقيق ذلكم التفوّق، إنه يصرح لأبيه أن الله ميزه بعلم لم يبلغه الأب نفسه، إنّه المدد الرّباني، إنّه الوحي، وفي كلّ ذلك لايصرّح باسم العلم الذي

أوتيه، ولا باسم الـذي وهبه إياه، مراعاة لشعور أبيـه في هذه المرحلة الأولى من مراحل الدّعوة، إنّـه علم لم يحصل على مثله الأب رغم إنّه سادن المعبد، وقدوة القوم، ثم يبين لأبيـه ما ينبني على هذه الحقيقة، إنّـه اتبـاع الأب لإبنه، وهـو يعـده بأن يهديـه صراطا سـوياً ،ويبقى المسلك نفسـه لـدى إبـراهيـم كما رأينـا في الإشـارة الأولى يقـوم على التوجيه غير المباشر دون الطعن الصريح في مسلك الأب.

١ ـ إنّ علم الابن أسـمى من علم الأب.

٢ ـ إنّ على الأب أن يكون تابعا للابن .

٣ ـ إنّ على الابن أن يهدي الأب صراطا مسقيما مقابل هذا الإتباع.

وبهذا يكون إبراهيم قـد بيّـن لأبيه بذكـاء ولطف يتناسبان مع هذا المقام من مقامات الدّعوة إلى الله ما يلي:

١ ـ أن على الأب ألاّ يغتر بما أوتي من علم.

٢ ـ وأنّ علمه هذا بعيد عن الصراط المستقيم فهو بالتالي ضلال في ضلال.

٣ ـ وأنّه بناء على هـذا وجب عليه أن يتّبع ما أوتي ابنه من علم إذا أراد أن يكون من المهتدين.

ثم تأتي إشـارة إبراهيم الثـالثة : وإن تصعدت اللّهجـة فإنها تبقى مفتتحة بالنداء الذي يتفاعل معه كيان الأبوة (يا أبت) ، إنّه ينهي أباه

عن عبادة الشيطان، فالأصنام أي معبودات أب إبراهيم شر، بل رأس الشر وسنامه، وهذه جرأة وتطاول على ولى أمر الأصنام، إذ يعتبرها أساس كيانه، ومصدر رزقه الذي أنفق منه على إبراهيم نفسه الذي يخاطبه الآن بمثل هذا الخطاب، ولكنّه الحقّ، ولا هوادة في الحقّ، فإن لاطف في الإشارتين السابقتين، ولم يسم الأمور بمسمياتها المباشرة، فإنه الآن صدع بالحقيقة عسى أن ينتبه الأب، لأنه غارق لأم رأسه في هذه العبادة، فلابد أن يهزّ كيانه عسى أن تتحرّك فطرته، وتثأر لما أفسدته العادة من وعيه وإدراكه.

ثمّ يصارح أباه بالحقيقة التي استقرّت مع بني آدم منذ أن وجد آدم:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم ٤٤

وذاك منذ أن امتنع عن السجود لأدم، وأخذ العهد من الله على أن يضلّ كل من لبى دعوته، ونهج نهجه إلا عباد الله المخلصين

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

(١٥ الحجر ٣٩ ـ ٤٠).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٨ ص ٧٩ ـ ٨٥).

هـذا هـو الشيطـان ، عصيـان صرف رغم رحمة أرحم الـراحمين، فكيف يحق لأي بشر أن يعبـده أو أن يسقط في غوايتـه فيعبد أصنـاما من دون الله الذي يبدىء ويعيد، وهو رب العرش المجيد ؟

ويستغل إبراهيم هـذه الإشارة الثالثـة العنيفة ليبيّن مدى حبـه له ، ومـاذا يحب مـؤمن ربـاني أوّاه حليم لأبيـه ولغيره من البشر بعـد أن إنكشف له من الحقّ ما لم ينكشف لغيره، إنّه لا يريد للناس جميعا إلا الخير، وعلى رأس هـؤلاء أبوه، وهـو رأس في قـومه بحقّ، إنّـه من فـرط حبّـه له يخاف عليـه ممّـا ينتظـره من العذاب من الـرحمن نتيجـة انصياعه لمن كـان للرحمن عصياً، إذ مادام لم يطع خـالقه فهو أولى بأن يعصى، ولا يغفل إبـراهيم وسط هـذا النّـذيـر العنيف أن يختـار من أسماء الله الحسنى ما يوحي بأسمى درجات الخير، إنه الرحمن لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، ولم يذكر من أسمائه ما يوحي بالقهر والكبرياء، وذاك عسى أن يستهوي هذا الأب الذي سيطر عليه الشيطان ولم يترك له مجالا للتّحرّر، وهو أخشى ما يخشاه على هذا الأب وذلك بأن يختم لـه على تلك الحال، فيبقى من أوليـاء الشيطان إلى الأبـد، وإبـراهيم يعلم مـآل هذا الصنف من النّـاس، وإن كان أبـوه في غفلة تامّـة عن

مثل هذه المعاني، وسيستمرّ على غفلته إذ ملأ الشّيطان شغاف قلبه، وسيطر على كيانه، ويتجلى ذلك من خلال الرّد الجافي، الذي يدل دلالة واضحة على جهالة هذا الأب، إنه في طغيانه يعمه رغم أنّ نور الإيمان انبثق من صلبه ومن أعماق بيته.

إنه الإنكار الشديد، والوعيد الذي ليس بعده وعيد، ولم تطل عبارة الأب لأن هذا الابن خيب آماله، وهو ما يزال يهيئه ليكون وريثه، وسادن المعبد، وسيد القوم، باللخسارة، إنّه أمر يثير العجب والإنكار، فكيف يصدر مثل هذا الكلام من ولده !

ولو صدر من غيره لعله يقبل إذ قد يعزى ذلك إلى الجهل، أما هذا الولد الذي عايش الأصنام من يوم ولدته أمه، يعتبرها اليوم شياطين ومصدرا من مصادر الشرّ هذا ما لايقبله هذا الأب المنكوب، ويقف من إبنه موقف صاحب العقيدة الرّاسخة، وهكذا الحال عندما تصطدم عقيدة بعقيدة، وإن كانت واحدة زائفة، والأخرى حقّاً ، فحتى الزّائفة تبقى عقيدة، وإن كانت باطلا (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ) ما هذا الأمر العجيب ؟ كيف تحدّث إبراهيم نفسه أن يرغب عن الآلهة التي ينسبها الأب لنفسه ؟ فهو يعتنقها ويعتز بها ويعتبرها جوهر حياته (آلهتي)، وهذا ابنه وكأنه من الآن أهل بأن يتبرأ منه ،

فهو لم يجب نـداء البنوة (يا أبت) بالنـدّاء المماثل (با بنيّ) ولكن اكتفى بـالاسم المجرّد ، إنّـه إبراهيم وكفى، ليس أهـلا بأن يكون إبنـا لهذا الوالـد لأنه أعـرض عن آلهتـه، وتحوّل إلى عبادة أخـرى لم يفقه الأب منها شيئا.

إنّ مثل هـذا الموقف لجديـر بأن يكـون مثيرا للعجب والإنكـار من هذا الوالد، وقد عبرّ عن ذلك بكل ما أوتي من قوّة.

ثمّ تحوّل بعد ذلك إلى الـوعيد والنذير، وهو يـرجو من وراء ذلك أن ينتهي إبنـه عمّا ذهـب إليـه، وأنّى لإبـراهيم أن ينتهـي عن عبـادة الواحـد الدّيان بعـد أن انبلج له نـور الحقّ ،وهو يسعى إلى أن يهدي أبـاه إلى أقـوم السبل، بل لن يـزيـده مثل هـذا التّهـديـد إلا تمسكـاً وصلابة.

ما هو هذا التّهديد يا ترى ؟ إنه من أشد أنواع الإنتقام، إنه الرّجم بـالحجـارة إلى الموت، إذ اعتبر الأب أن التحـدي سـافـر، وأنّـها الفضيحـة، فهلاك هـذا الولـد المفسـد لدين الآبـاء أولى من حياتـه، وليكن مسلك إهـلاكـه درسـا لكل من يتطـاول على الآلهة، اذ كيف بحق لولد السّادن أن يكون هكذا ؟

وذاك هو مسلك الطّغاة عندما تقرعهم الحجّة، يتحولون إلى الحديد والنّار، وهم يغفلـون عن أنّ التعذيب بكل أصنـافه لايزيـد أصحاب

الإيمان إلا صلابة ورسوخا لأنّهم آمنوا أنّهم رابحون في كلتا الحالين، فالموت تحت التّعذيب شهادة وجنّة نعيم، والنّجاة منه نصر مبين ثمّ جنّة نعيم.

وفي انتظار ذلك إمّا الإنتهاء، وإمّا الرّجم، ويعلن الأب البراءة من ابنه، ويأمره أن يهجره هجراناً ملياً، إذ صار لا يتحمّل أن يرى وجهه، ولا حقّ له في أن يعيش وسط هذا المحيط الذي يتنفّس أهله ريح الآلهة التي ينكرها إبراهيم، إنّه الطّرد الكامل، عسى أن يشعر الولد بالخصاصة ويعود إلى ما كان عليه حسب تصوّر الأب.

وأمام هذا السّخط الجارف الّذي كان ينتظره إبراهيم إذ يعلم أنّ المعركة ليست هيّنة، إنّها المعركة بين الكفر والإيمان، فلا بدّ من الصّبر والثّبات وعدم الرّد بالمثل ، ولم ينسه تعنيف الأب أنّه في حضرة أبيه الذي يأمل أن يكون من المهتدين (سَلَٰمٌ عَلَيْكَ) ، إنّه الرّفق بعينه، إنّه حليم بحقّ، أبعد هذه الرّحمة رحمة ! أبوه ينذره بالويل والثّبور والرّجم والهجران، وهو يسلّم عليه أي يعلن بين يديه أنّه لن يصيبه منه سوء، وهذا هو معنى هذه التّحيّة التي صارت تحيّة المسلمين فيما بعد ، وبيّن الله أنه اختارها تحيّة لأهل الجنّة

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ ﴾

(١٠يونس ١٠).

كذلك يجب أن يكون كل داعية لأنّ إبراهيم أسوة، وكذلك كان محمّد صلىّ الله عليه وسلم وكلّ من نهج نهجه، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾

(٢٥ الفرقان ٦٣).

لقد علم إبراهيم أنّ أباه كان جاهلاً فخصّه بهذه التّحيّة ثم ماذا ؟ (سأستغفر لك ربّي) وهذا نهاية في البرّ بالوالد، فإن أنكر الأب رغبة الابن عن آلهته بكل اعتزاز، فإن الابنّ البارّ والدّاعية المخلص يعتزّ بربّه ويبينّ لأبيه أنّه غفور رحيم، وأنّه سيستدرّ له من مغفرته، وفي كلّ ذلك يرجو من هذا الأب أن يستفيق من سباته العميق، كما يبيّن لأبيه أنّه وإن كان مرموقا وسط الآلهة الوثنيّة فإن إبراهيم مكرّم عند ربّه، وأنّى تستوي المقارنة بين تكريم وتكريم، بين تكريم مزيّف قشوري لا أصل له، وبين تكريم من ربّ العالمين، (إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا) وفي ذلك إشارة إلى لطف الله تعالى بإبراهيم وبرّه به.

تلك هي المرحلة الأولى من المعركة بين الحقّ والباطل، وهي تهيئة للمرحلة العمليّة، وسنعلم من بعد أنّ إبراهيم عندما تيقّن بكفر أبيه تبرّأ منه وإن كان أباه، لأن العقيدة أسمى من أن تدنّس بالمشرك وإن كان أقرب النّاس إلى الإنسان المؤمن، وإن كان في أعلى درجات الحلم.

لقد باءت هـذه التّجربة بالفشل، فهل يتوقّف إبـراهيم عن الدّعوة لـربّ العـالمين ؟ كـلاّ بل تستمـرّ المحـاولات مع القـوم ، ومع أبيـه والقوم، قبل أن يتحوّل إلى تحطيم أصنامهم ويقع ما وقع.

ب ـ تصرف إبراهيم مع قومه :

قال تعالى :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ

أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿

(٢٩ العنكبوت ١٦ ـ ٢٧).

هكذا يكون الأنبياء والرّسل والدّعاة المخلصين، إن خسروا معركة فلم يخسروا الحرب على غرار إبراهيم الذي وفّى ، إن أعرض أبوه فعسى أن يجد أذنا صاغية في القوم ، ذلك أنّ عقيدة هؤلاء دون عقيدة أبيه رسوخا لأنهّم أتباع ولعلّ اهتداء بعض منهم يكون فاتحة خير لبقيّة القوم ولأبيه. لذلك وقف بين أيديهم بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله وسراجا منيرا، مقابلا بين عبادة الله تعالى وما يرجى من ورائها من خير ، وبين عبادة الأوثان وما تقوم عليه من زيف وبهتان. كلّ

ذلك في خطوات ثابتة جديرة بأن يقتفى أثرها كل داعية إلى الله عزّ وجلّ، إنّه بحقّ إمام الدّعاة أجمعين.

اللمسة الأولى : يدعو قومه الذين ينتسب اليهم وهو واحد منهم إلى عبادة الله وإلى التّقوى، إنّه يعلم يقينا أنهّم لاينكرون وجود الخالق ولكنّهم لا يوحّدونه في العبادة وهذا شرك مقنّع صعب علاجه لأنّ أصحابه يحسبون أنهّم يحسنون صنعا لذلك يتلطّفهم إبراهيم، ويدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده، ولا يتّخذوا معه شريكا، ولن تتمّ تلكم العبادة إلاّ إذا شفعوها بالتّقوى التي هي مخّ العبادة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٤٩ الحجرات ١٣).

والتّقوى هي أن يشمّر الإنسان في العبادة، وأن يحاذر من الوقوع في المحظور لأنّه يحسّ في كلّ لحظة أنّه بين يدي الله وأنّه لا تخفى عليه من نواياه وأقواله وأفعاله خافية.

بهذين الأمرين يأمر إبراهيم قومه دون أن يغفل عن تبشيرهم بما ينتج عن العبادة والتّقوى من خير في الدّنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إنّها دعوة إلى نفي الجهل، واختيار الأفضل لأنفسهم إذا أرادوا أن يكونوا من المفلحين.

اللمسة الثّانية : وبعد أن رغبهم في عبادة الواحد الدّيان يعرّفهم بحقيقة معبوداتهم.

١ ـ إنّـها مجرد أوثان ، والوثن التّمثال من الخشب .

٢ ـ إنهّم بعبادتهم هذه لا يستندون إلى برهان، وإنّما ينشئون باطلا.

٣ ـ إنهّـا معبودات عاجزة عن النّفع وأهمه الرّزق .

ويـرمي إبـراهيم من وراء هــذا التّعـريف إلى أن يثبت لهم سخف عبـادتهم، لأنّ المعبود بحقّ لايمكن أن يكـون من صنع العبـد، ومن صفاته القدرة المطلقة، وهـو بهذا يثير كوامن فطرتهم عسى أن تتحرك مشاعرهم ويقلعوا عن عبادة هـذه الأصنام التي ينحتونها بأيديهم، ثم يقعـون لها سـاجديـن مقدّسين، وهم يقـرّبـون لها القـرابين عسى أن تقضى حوائجهم، وهي عن قضاء حاجتها أعجز.

اللمسة الثالثة : يعود إبراهيم ليبيّـن لهم فضل الله على العباد. هذا الذي اختاره ربّا وآمن به، إنّه هو الرّزاق ذو القوّة المتين، وهلى يبتغى الـرّزق من عند غيره ؟ وهـو الـذي لا إله سـواه. ثم يـدعوهم مـرّة أخرى إلى أن يعبدوه وحده لأنّـه هو الأهل بأن يعبد بحقّ، وتتجلّـى سمات العبادة في الشّكـر له بتسخير جميع الجوارح في طاعته بـالإمتثال لأوامره والإنتهاء عن نـواهيه، ويختم إبراهيم السّياق بـالتّذكير بعظمة هـذا المعبود إذ اليـه المرجع وإليـه المصير، فمهما طـال عمر الإنسـان، ومهما تصرّف كما أراد فعبد ما عبـد وفعل ما فعل، فإنّه راجع إلى الله عزّ وجلّ ليحاسبه على ما قدّمت يداه، وبهذا فليفهم قومه أنّ الله وإن

كان رزّاقا فإنّه أيضاً جامع النّاس ليوم لا ريب فيه، لتوفي كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون، وفي هذا التّعقيب ربط واضح بين العمل في الدّنيا والجزاء في الآخرة، وهو الأمر الذي كثيرا ما يغفل عنه أهل الباطل والضّلال.

اللمسة الأخيرة : تتجلى لهجة التحدّي، بالتذكير بأحوال الأمم وبحدود وظيفة الرّسل .

فان كذّب قومه فليسوا أوّل من كذّب، ولن يضّر تكذيبهم الله عزّ وجلّ شيئا، بل لأنفسهم يسيئون، كما أنّ هذا التكذيب لن يخلّ برسالة رسولهم، إذ ليس على الرّسول إلاّ أن يكون أمينا جاداً مخلصا في التّبليغ، وبعد ذلك يوكل الأمر إلى الله عزّ وجلّ، وها أنّ إبراهيم قد بلّغ، وما يزال يبذل كلّ ما في وسعه لافهام قومه سلامة ما يدعوهم إليه وسوء ما يعتنقون من عبادة الأوثان.

إنّها أربع لمسات من صميم الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ، وكذا على كل داعية أن يتدرّج بمن يدعوهم عسى أن يصل بهم إلى ساحل النّجاة بسلام، لقد كانت الحكمة رائد إبراهيم في هذه الدّعوة إذ ما فتىء بكل هدوء يقابل بين الإيمان وحلاوته وفضله وما فيه من خير، وبين الكفر ومرارته وتسفّله وما فيه من شرّ، فان كان المؤمن يعبد الرزّاق المبدىء المعيد ويتّقيه ويشكره فلا يخّيبه عندما يرجع إليه فإن الكافر يعبد وثنا صنعه بنفسه لايملك لنفسه نفعا ولا ضراً فكيف له أن يشمل من يعبده بخير أو بشر !

وقبل أن يأتي النّصّ القرآني بجواب القوم على هذه اللّمسات الزّكيّة يقف وقفة تذكرّ بعظمة الله عزّ وجلّ وقـدرته وما ينتظر الكافرين من عذاب أليم.

ثم يأتي جواب القـوم معبرّا عن عجزهم المطلق أمام حجّـة إبراهيم وسماحته، ولا حيلة لهم إلاّ أن يكشفـوا له عن طغيانهم، وهم حسب أنفسهم يثأرون لآلهتهم، وهم في الحقيقة لزيفهم يثأرون.

ويستقـر الـرّأي على الحكم بـالإعـدام، وليكـن ذلك بأشـدّ أنـواع الإعدام ألا وهو الإحراق، سبحان الله ما أقسى قلب الإنسان إذا أراد أن ينتقم من أخيه الإنسان عندما يخالفه في الفكرة والعقيدة، والتّاريخ يثبت أنّه لم يختلف في تلكم القسـوة لا المتقدمـون ولا المتأخّرون، وإن كنّا قد نعـذر المتقدّمين، فلا عذر للمتأخّـرين الذين نادوا ومـا يزالون ينادون بجميع أصناف الحرّيّـات، ولكن الواقع يثبت يومـا بعد يوم، أنّ ذلك ضرب من الزّيف والتّمويه فحسب.

ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نـوره، وينجـو إبـراهيـم من النّـار، وتتجلىّ المعجـزة لتبينّ عجز الطّـاغوت أمـام عظمة الله عـزّ وجلّ، لكن أنّى للقلوب الميّتةأن تستفيق.

ويعود إبراهيم ليفضح هؤلاء القوم مبيناً أن استبقاء المودة بين القوم ومجاملة بعضهم البعض هما اللّذان يشدّانهم إلى ما هم عليه من كفر ، ثم يصوّر لهم حالهم يوم القيامة

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(٤٣ الزخرف ٦٧)

وما سيكون بينهم من لعن ليستقرّوا في عذاب الجحيم، وهنالك لن تنفعهم أوثانهم ولا مودتهم ولا ماكانوا يكسبون.

ما هي نتيجة تلكم الدّعوة الدّؤوب ؟ إيمان فرد واحد هو لوط، ولا سبيل إلى البقاء بين قوم أصرّوا واستكبروا استكبارا، إنهّا الهجرة إلى الله العزيز الحكيم.

وليس لنا أن نحلّل أمر الهجرة وموجباتها قبل أن نزيد تحليلا لما جاء في القرآن الكريم من مواقف إبراهيم مع أبيه وقومه كما جاء ذلك في سورة الأنبياء والشّعراء والصّافات والزّخرف.

ج ـ تصرف إبراهيم مع أبيه وقومه

لئن جاء الخطاب في سورة مريم موجّها للأب وحده، وفي سورة العنكبوت للقوم وحدهم فإنّه وجّهه في سورة الأنبياء والشّعراء والصّافات والزّخرف للأب والقوم.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾

(١٢ الأنبياء ٥٢) (٢٦ الشعراء ٧٠) (٣٧ الصافات ٨٥).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾

(٤٣ الزخرف ٢٦).

ولاشكّ في أنّ في تكرّر المشهد في سور متعدّدة دلالة واضحة على مدى معاودة إبراهيم لدعوة قومه بأساليب متعدّدة عسى أن يتوبوا لربّ العالمين وذاك شأن الرّسل أجمعين، لا يتوقفون عن الدّعوة حتى يفصل الله بينهم وبين قومهم بالحقّ وهو خير الفاصلين.

وبما أنّنا لا نرمي من وراء هذا الكتاب الشّمول فلنكتف بالنّموذج الوارد في سورة الأنبياء مع الاستعانة بالنّصوص الأخرى عند اقتضاء الحال.

قال تعالى :.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٢١ الأنبياء ٥١ ـ ٧١) .

إنّ هذا المشهد القرآني الكريم يعرض معركة بالقول والفعل بين طرفين متقابلين ، بين إبراهيم الذي آتاه الله رشده وكان به عالما ،

وبين أبيه وقومه وهم عاكفون على عبادة الأوثان على مسلك الآباء والأجداد. يسعى إبراهيم لينتصر لربّه بالقول ويثبت لأبيه وقومه أنّهم في ضلال مبين وما عليهم إلاّ أن يتخلّوا عن عبادة هذه الأوثان ليعبدوا الله الذي آمن به، وهو ربّهم وربّ السّموات والأرض.

ويتصدّى له قومه بالقول أيضا ، ويعلّلون عكوفهم على عبادة معبوداتهم بالإقتداء بالآباء والأجداد، معتبرين موقف إبراهيم ضربا من اللّعب البعيد كل البعد عن الحقّ.

واضح أنّ كلّ طرف متحمّس لعقيدته، مستعدّ للاستماتة من أجلها مهما كان ، وكلّ يعتبر أنّ حجتّه ليس وراءها حجّة .

وما يزال إبراهيم يستنقص آلهتهم ويبرز عيوبها، فهي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع ، ولا تضر، ولا ترزق وما يزال القوم يحتجّون بحجّة واحدة ألا وهي الإقتداء بالآباء والأجداد دون أن يثبتوا لهذه المعبودات مزايا، وما يزال إبراهيم يعرض على القوم فضل ربّ العالمين السّميع البصير الرّزاق الذي يحيي ويميت وإليه المرجع والمصير.

ومع ذلك لا يزيدهم ذلك إلا إصرارا ، إذ هم يذكرون لإبراهيم أنهّم يخافون أن تصيبه آلهتهم بسوء، وهنالك يرى أنّه لابد من التحوّل إلى الفعل ليثبت لهم بالبرهان أنّه أولى بالأمن منهم، وذلك شأن المؤمن بربّه الذي يوقن أنّه لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

ومن القـول والمناظرة يتحـوّل إلى الفعل إذ رغم إعلانـه عن البراءة من معبـوداتهم وعـداوتـه الصّـريحة لها لم يتحـوّل القـوم عن شركهم وعنـادهم فلـم يبق إلاّ أن يحطم هـذه الأصنـام حتّى يستريـح ويـريح القـوم، ويثبت لهم بـالدليل الملمـوس عجـز هـذه الأوثان، والحجّـة العمليّة أبلغ مهما كان القول فصيحا وقاطعا.

وفعلا راغ إلى آلهتهم، وهو يعرفها من عهد الصبّا بعد أن تخلّوا عن معبـدهم يوم عيـدهم، وراح يتهكّم من هـذه الأصنـام قبل أن يصبّ عليها جـام غضبه لأنّها شدّت إليهـا قلب أبيه وقلوب قـومه أجمعين، وكانت حجـر عثرة أمـام دعوته لـربّ العالمين ، إنّـه قد عيل صبره، فظل يسائلها وكأنّـها تسمع وهو يدرك أنّـها صمّاء بكماء :

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ (٣٧ الصافات ٩١ ـ ٩٢).

نعم راغ عليهم ضربا باليمين، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلّهم إليه يـرجعون، وذلك تخطيط من إبراهيم حتى يقيم الحجّـة على القوم ويثبت لهم بـالبيان الـذي ليس بعـده بيان سخـافـة عبادتهم، وعجـز معبوداتهم .

إنّها لصورة إيمانيّة رائعة صورة انتقام إبراهيم عليه السّلام من تلكم الأصنام التي حـالت بينه وبين نشر الخير. إنّـه لم يكتف بمسّها ببعض الضربات أو بإسقاطها، وإنّما لم يطمئنّ قلبـه حتّى تركها قطعا صغيرة

متناثرة هنا وهناك. كذا يجب أن تكون كلّ معركة مع الأصنام في كل زمان مهما كانت هذه الأصنام، اذ لكل زمان أصنامه.

لقد شفى إبـراهيم غليله، وانتقم من هذه الأصنـام شرّ انتقام لكن مـاذا بعـد ذلك ؟ إنّـه يعلـم علم اليقين أنّ القـوم سيثأرون لآلهتهم، وسيسومونه سوء العذاب .

لم يترجـرج لحظة، فأهـلا وسهلا بـذلك العـذاب مهما كان، لأنّـه ينتظر الأجر الجزيل من الذي عينه لا تنام.

وعـاد القـوم إلى أصنـامهم فلم يجدوا إلا جـذاذا، فجنّ جنـونهم، وظلوا يسألون عن الجاني وماهو منهم بخائف، وأدركوا بسرعة أنه ذاك الفتى الذي مايزال يذكر آلهتهم بسوء، إنّه إبراهيم، لاشكّ أنّه إبراهيم.

وهنـا يتظاهـر أهل المنكر بأنهّم يـرفعـون لواء العـدل ويدعـون الى محاكمته علنيّة حتّى يرتدع في المستقبل من تحدّثه نفسه بأن يتطاول على الآلهة، والأب من بينهم ومـا يـزال يقـودهم، وتقـدّمت العقيـدة على روح الأبوّة الدّمويّة .

وتنطلق المحاكمة .

المدّعى عليه : إبراهيم

المدّعـون هم القضاة في نفس الـوقت : القـوم وسلطتهم الرّوحيّـة وسلطتهم الزّمنية.

السؤال الأول : (ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ) ؟ الأنبياء ٦٢

إبراهيم : (قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ)

يالـه من مدّعـى عليه، إنه منتهـى الذكاء، إنها منتهـى الجرأة، إنّه المؤمن بحـقّ ، لقـــد خطّط لهذا الموقف من قبـل حيث تـــرك كبير الأصنام، وألصق به التّهمة، ولم لايكـون ذلك ؟ لعلّه غضب على ما حولـه من أصنام لأنها لم تطع أوامـره، إنّه التّهكّم على أشـدّه، ولكن برصانة وهدوء.

وما يريـد إبراهيم من وراء هذا إلا إثارة القوم ، وقـد ناظرهم من قبل مـرات ، وهـو بعجـزهم على الحجّـة خبير، لـذلك أمـرهم بأن يسألوا هذا الكبيرْ ليدفع عنه التّهمة، وما هو بقادر لأنّـه أبكم.

ولكن أنّى للقوم وقد ران على قلوبهم، وهم مشدودون برباط وثيق من المجـاملـة والمودّة بينهم لمثل هذه العبـادة التي يعتبرون أنّها أسـاس حياتهم، أن ينتبهـوا إلى المعاني السّامية التي يشير إليهـا إبراهيم، وهي أنّ المعبـود بحقّ يجب أن يكون قـادرا قـدرة مطلقـة، ومن صفاتـه أن يكون الكلام له.

لقـد أفلح إبراهيم في خطّتـه هذه ــ ولـو للحظة من الـزّمن ـ لقـد تـزعـزعت عقيدتهم، وحقّـروا آلهتهم، واتهمـوا أنفسهم بـالظّلم، إنها الفطرة ـ وهي إيمان خالص ـ ومضت من وراء سجوف الشّـرك، ولا

تتصور هنالك فرحة إبراهيم ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهو ما ظلّ يسعى إليه، إنّه الرّجوع إلى النّفس التي تشترك مع جميع المخلوقات في التّسبيح لربّ العالمين إذا لم يدّنسها صاحبها بالمعاصي، ونعلم أنّ أشدّها الشرّك لأنّه أكبر الكبائر. وهذا الرّجوع إلى النّفس هو وحده الكفيل بأن يدفع صاحبه إلى الإنتباه من الغفلة التي تحجب عن الإنسان أبسط الحقائق. ياليت هذه الومضة طالت واستقرّت لأنّها كانت ومضة صادقة إذ حكمت على كل المواقف السّابقة مع إبراهيم بأنّها ظلم يجب أن يتخلّى عنه إلى الحقّ، وهو اعتناق ملّة إبراهيم.

لكن هذه الومضة الإيمانية سرعان ما طمسها كبرياء القوم، كيف! إنّهم كثير وإبراهيم وحده، وكيف يخضع الكثير لواحد ؟ ولاسبيل حسب زعمهم أن يكون الحقّ إلاّ مع الأكثرية. لا. لا. إنّ إبراهيم متمرّد على الجماعة وعلى تقاليدها وعلى مقدّساتها هذا ما كانت تحدثهم به نفوسهم الأمارة بالسّوء، وهي بذلك تردّ على ما في داخلهم من نفس لوّامة تجنح إلى الطمأنينة.

وكذا حركة النّفس الأمّارة بالسّوء لدى كل إنسان، خاصّة إذا كان في جماعة يسيطر عليها جانب الشرّ ، وأي شرّ أشدّ من الشرّك، إنّه ما يسمّى في علم النّفس بغريزة القطيع إشارة إلى أن الأغنام إذا إنساقت واحدة منها ولو إلى الغرق ينساق الكل وراءها.

وانساق القوم مع الأب، وضاعت الفرصة إلى الأبد بالنّسبة إلى

إبراهيم، ونكس القوم على رؤوسهم ليعودوا إلى الجدل العقيم

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ الأنبياء ٦٥

وهم بهذا يطالبون إبراهيم بالجديد معتبرين أن هذه حجّة بالية لاتزيد في إقناعهم شيئا، إنّه المراء بعينه لأنهّم بعد أن بانت لهم الحقيقة أبوا إلاّ أن يطمسوها وأن يحولوا عنها الأنظار، وذلك بالتّقليل من قيمة الدليل.

هنالك يدرك إبراهيم أنّه العمه، أي عمى القلب

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(٢٢ الحج ٤٦).

فلا قيام لهم بعد هذا الارتكاس، إنّه الجهل المركّب إذ يجهلون ويجهلون أنهّم يجهلون بل يعتبرون أنفسهم في أرقى درجات العلم، وأنكر إبراهيم عليهم الإنكار الأخير، إنهّم يعبدون ما ينحتون، إنهّم يعبدون ما لاينفع ولا يضرّ عوض أن يعبدوا الواحد الدّيان الذي ما فتىء يدعوهم إلى عبادته وأنكر على آلهتهم التي ما يزالون يتعلقون بها ويدافعون عن ألوهيتها رغم أنها لم تملك حتى لنفسها نفعا ولا ضرا.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾. الأنبياء ٦٧

وكانت فعلا الكلمة الفاصلة ليتحول القوم إلى الفعل كما تحول إبراهيم من قبل إلى الفعل فكسّر، والجزاء من نوع العمل ، يجب أن

يحطّم، لكن كيف يكون هذا التّحطيم ؟ يجب أن يكون أشدّ أنواع التّحطيم الذي يعرفه البشر.

أيكتفون بجلده ؟ لا هذا غير كاف .

أيسجنونه ؟ لا . إنّ فعلته أشنع.

أيقتلونه رجما كما توعّده أبوه ؟ لا . إنّه عذاب دون ما ألحقه بهم وبآلهتهم من هزيمة، كلّ ذلك لايمكن أن يرضي الآلهة المحطمة.

أيقتلونه شنقا . أو إغراقا أو ؟ . . . لا.

﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ (٣٧ الصافات ٩٧).

ذاك هو جزاء من ينتهك حرمة الآلهة، وبهذا استقرّ رأيهم على أنهّم الأولى بالأمن، وأنّ إبراهيم الأولى بالخوف لأنّه ظالم حسب معتقدهم.

ما هو شكل هذا التحريق ؟ وما هو حجمه ؟

لم يكن الأمر احراقا عادياً ، وإنّما هو احراق إنتصارا للآلهة وما أدراك، يحتاج منهم إلى بنيان وإلى إلقاء، إنهّا الجحيم التي تحتاج بأن يلقى فيها المحكوم عليه بالتحريق من بعيد.

ماذا يا إبراهيم ؟ ما هذا الإيمان ؟ ما هذا الإخلاص ؟

آمنت أنّك اتخّذت ربّك خليلا، وقلتها عن يقين إنّه كان بك حفياً، إنّك إمام المسلمين بحقّ، وأهل بأن تكون إمامهم بحقّ.

إنّ الذي انتصرت له لا يمكن أن يخّيبك ويشمت بك الأعداء. بل إنها ستبقى غصة في نفوسهم عندما تتّضح لهم هزيمتهم النكراء .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾. الأنبياء ٦٩

إنّ الذي جعل من طبيعة النّار الإحراق سحب عنها هذه الطبيعة، بل أكثر من هذا أمرها بأن تكون بردا وسلاما على إبراهيم.

ولا يتّسع الخيال ليصوّر ما كان يرفل فيه إبراهيم من نعيم، عندما كان القوم يتصوّرون أنّه يشوى شياً ، وأنهّم استراحوا منه إلى الأبد، إنّه برد وسلام حساً ومعنى، وليس بعد بيان القرآن الكريم بيان .

وينـدكّ البنيان، وتنطفىء النّيران ، ويسلم إبراهيم بفضل العزيز الرحمن، واذا به حيّ يرزق أمام القوم، إنهّم بحقّ كانوا من الأخسرين، وينجو إبراهيم ولا تنفع المعجزة، ويستمرّ القوم في ضلالهم، ولم يبق له إلاّ أن يهاجر إلى الله بأمر من الله.

وكما ذكرنا من قبل لم يؤمن له إلاّ لوط، وليس بعد هذه الحجّة من حجّة فليوكل أمر هؤلاء النّاس إلى الخالق، وليفتح صفحة جديدة مع أناس آخرين، وفي الهجرة مراغم وسعة كما يقول رب العالمين :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ

﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(٤ النساء ١٠٠) .

يقول عزّ من قائل :

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(٢٩ العنكبوت ٢٦).

كما يقول :

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢١ الأنبياء ٧١) .

ويستمر إبراهيم في الدعوة إلى الله في هذه الأرض التي بارك الله فيها للعالمين وتقع أحداث أنظر في شأنها ما يلي :

(سورة هود: ٦٩ ـ ٨٣) (سورة الحجر: ٥١ ــ ٧٥) (سورة الأنبياء: ٧١ ــ ٧٥)

(سورة العنكبوت: ٢٦ ـ ٣٥) (سورة الذاريات: ٢٤ ـ ٣٧)

وقبل أن نتتّبع إبراهيم في المحطّة الأخيرة التي أرسى فيها قواعد الحنيفيّة السّمحة، ألا وهي مكّة المكرمة يحسن أن ندرك من خلال عرضنا لمعركة ابراهيم مع ملك البلاد، ومع أبيه ومع قومه أنّ صاحب العقيدة يجب أن يعرف ماذا يرفض؟ ومتى يرفض ؟

ذلك أنّ المسلمين اليوم في محنة من أمرهم تجاه ما تقدّمه الحضارة

العالمية من فلسفات تبدو لأول وهلة كأنّها الخير كلّه كما بدت المعبودات لقوم إبراهيم لكنّها سرعان ما يخفت بريقها عندما تعرض على محكّ الوحي الإلهيّ كما خفت بريق الكواكب والقمر والشمس والأصنام عندما أثبت إبراهيم أنّه لا يحبّ الآفلين.

نعم إنّ هذه المرحلة من سيرة خليل الرحمن درس راق في التّعرّف على فلسفة الرّفض لكلّ ما لايخضع للوحي الإلهيّ ، ذاك أنّ إبراهيم لم يرفض من اللّحظة الأولى، وإنّما سعى للاقناع بكلّ ما أوتي من قوّة، ثم تحوّل إلى الرّفض، وتحمّل مسؤوليته كاملة فنصره الله نصراً مبينا ونجّاه من القوم الظّالمين.

المحور الثاني : إبراهيم إمام المسلمين

١ ـ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً

لقد علمنا أنّ إبراهيم تصدّى لكلّ ما عرف في عصره من أنواع الشّرك، وضحّى من أجل ذلك بحياته ولولا عناية الله عزّ وجلّ لالتهمته ألسنة اللّهب ﴿ إِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ (٦ الأنعام ٧٨).

لقد أيقن أنّ الشّرك لظلم عظيم كما جاء في القرآن الكريم خلال وصية لقمان لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ (لقمان ١٣).

ومهما كان هذا الشّرك ، شرك جحود بأن ينكر الإنسان وجود الله عزّ وجلّ، أو شرك مساواة بأن يتخذ الإنسان لله أندادا يعتقد أنهم يتصفون ببعض صفاته الذاتية أو الفعلية، فإن رسالة الإسلام قد شنّعت به وبأهله أشدّ التشنيع.

تأمل قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾

(٢٢ الحج ٣١).

نعم إنّها صورة ماديّة صارخة تعبرّ عن أخرى معنويّة بكلّ وضوح، إنّه مشهد الهويّ من السّماء، أو في مثل لمح البصر يتمزّق فتخطفه الطّير أو تقذف به الرّيح بعيدا عن الأنظار في هوة ليس لها قرار.

أليس الذي يتخلّى عن قاعدة التّوحيد الرّاسخة رسوخ الجبال الرّواسي يفقد الطمأنينة

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١٣ الرعد ٢٨) .

وتتخطّفه الأهواء تخطّف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرّياح فإذا به في كل واد يهيم لا لشيء إلاّ لأنّه لم يتمسّك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

واعلم علم اليقين أنّ الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء كما جاء ذلك في سورة النّساء في موضعين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

(٤ النساء ٤٨).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

(٤ النساء ١١٦).

ولتدرك تمام الإدراك أنّ الله حرّم الجنّة على المشركين وبيّن أنّهم في نار جهنّم خالدين فيها أبداً

﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

(٥ المائدة ٧٢).

ولاشكّ في أنّ إبراهيم عليه السّلام ألهم كلّ هذه المعني إذ ما يزال السّياق القرآني ينفي عنه أن يكون من المشركين في مواطن عدّة.

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢ البقرة : ١٣٥) (آل عمران : ٦٧ ــ ٩٥).

(الأنعام : ٦ ـ ١٦٢) (١٦ النحل ١٢٣).

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٦ النحل : ١٢٠).

وكما أنّ القرآن الكريم نفى عن إبراهيم الشرّك بجميع أصنافه فإنّه أكّد أنّه لم يكن يهودياً ولا نصرانيّاً وذلك في سياق الرّد عل أهل الكتاب الّذين كانوا يحاربون الرّسول محمّدا صلىّ الله عليه وسلم ويزعمون أنّ إبراهيم منهم كما زعم المشركون من قريش أنهّم على ملّة إبراهيم عليه السّلام.

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(٢ البقرة ١٣٩ ـ ١٤٠).

وقال أيضا :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (آل عمران ٦٥ـ ٦٧)

نعم لايمكن بحال أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانيّاً ذلك أنّ كلاً من التّوراة والإنجيل لم ينزلا إلاّ بعد إبراهيم بردح من الزّمن وإنّما هو زيف من أهل الكتاب وتضليلهم، هؤلاء الّذين صاروا سادة العالم اليوم فسقوه السمّ الزّعاف في شكل حضارة ماديّة فاخرة، والغريب أن كثيرا من أهل البلاد الإسلامية تنطلي عليهم الحيل فيدعون إلى التّقارب رغم أنّ النّصّ القرآني صريح في أنّ هؤلاء النّاس أشدّ عداوة للّذين آمنوا

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ

﴿ ... ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(٥ المائدة ٨٢).

واليهود اليوم من خلال الحركة الصّهيونيّة وبقيّة الحركات الماديّة جرفوا النّصارى معهم ــ أولئك الذين لم يبق لهم إلاّ الإسم ــ في السّعي إلى إستعمار العالم واستعباد الشّعوب وغزوهم حساً ومعنى، وسحق من يجب أن يسحق منهم، خاصّة من بقيت فيه رائحة الإسلام الحقّ .

فإبراهيم حينئذ لا شكّ أنّه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣ آل عمران ٦٧)

نعم إنّ إبراهيم لم يكن مشركاً لأنّه يستثنى المعبود الحقّ كلّما تبرأ من معبودات قومه كما جاء في سورة الزخرف:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(٤٣ الزخرف ٢٦ ـ ٢٨)

إنها لاشكّ كلمة التّوحيد هذه التي عرفتها البشريّة قبل إبراهيم على لسان آدم ونوح وغيرهما من الأنبياء الّذين لم يتّصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ويعيش بها ولها.

لكن منذ أن أرسى أسسها إبراهيم الذي وفّى ظلّت متصلة في أعقابه، وقام بها الأنبياء والرّسل من ذرّيّته، ومن بينهم إثنان من أولي العزم موسى وعيسى، إلى أن استقرت مع ثالثهم من أولي العزم، وهو إبنه الأخير من نسل إسماعيل وأشبه أبنائه به كما جاء عن جابر عن رسول الله ﷺ أنّه قال: « عرض عليّ الأنبياء . . . ورأيت إبراهيم عليه السّلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم » وذلك ليلة الإسراء والمعراج.

فلنتعايش في ظلال هذه الكلمة الباقية كما تردّدت في ثنايا قصّة إبراهيم في الكتاب العزيز، وبصفة خاصة في جنبات أوّل بيت وضع للنّاس ليعبد الله فيه بحقّ.

٢ ـ إبراهيم يرسي كلمة الإسلام
في بلاد الله الحرام

يقول الله عزّ من قائل :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ
فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(٢ البقرة ١٢٤ ـ ٢٤١).

ذاك هو إبراهيم ﴿إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾، بل لم يكتف بذلك وأرادها كلمة باقية خالدة في عقبه فوصّى بها بنيه ﴿يابنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ ، إنه بلا منازع أهل لإمامة العالمين ، تلك الإمامة الّتي خصّه بها ربّ العزّة ﴿ قال إني جاعلك للنّاس إماما ﴾.

ذاك هو إبراهيم مسلم مستسلم استسلاما كلّيا للواحد الدّيان في عقيدته وفي أقواله وفي أعماله، أمره ربّه أن يرفع القواعد من البيت

فلم يأل جهدا في ذلك دون أن يتوقّف عن التّضرّع لربّ العزّة :

﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمّة مسلمة لك ﴾.

فهمّه الأوحد أن يعيش مسلما، وأن يموت مسلما، وأن تكون ذرّيته مسلمة، وأن يكون كلّ النّاس مسلمين، إذ لا قيمة للإنسان بدون إسلام، وهذا ما تجلّى عبر الزّمان وعبر المكان، ذاك أن النّاس عندما تخلّوا عن عقيدة التّوحيد لم تعرف الطّمأنينة إليهم سبيلا، لكن عندما تعايشوا في ظلال العقيدة الوارفة عرف العالم الأمن والطّمأنينة والسّلام.

يثبت القرآن الكريم أنّ الابتلاء محكّ العقيدة، وقد يكون بالخير، وقد يكون بالشرّ :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢١ الأنبياء ٣٥).

وقد علمنا مما سبق أنّ الابتلاءات تتالت على إبراهيم فى معركته مع أبيه وقومه وهذا السياق القرآنى يثبت أنّ الله تعالى ابتلاه بكلمات من الأوامر والتّكاليف، لم يفصح النّصّ عن مكنونها ولكن أردف ذلك بالنّتيجة والمتمثّلة في شهادة الحقّ تعالى أنّ إبراهيم كان من الفائزين إذ أتمّهنّ على أحسن وجوه الإتمام وذلك هو الفوز العظيم إذ قلّ من يصبر على البلاء، إلاّ أنّه إبراهيم الذي يقول فيه ربّه في موطن آخر من الكتاب العزيز ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾

(٥٣ النجم٣٧).

استطاع بفضل الله عليه أن يرتقي إلى مقام الوفاء والتّوفية أي الإمتثال الكلّي على الوجه المطلوب الذى يرضي العليّ القدير، ذلك أنّ الإنسان بضعفه وقصوره وتقصيره قلّ أن يرتقي إلى ذلك المقام.

ويالها من بشرى تزفّ لهذا الذي أتمّ كلمات ربّه عن يقين وإيمان صادق ووفّاها حقّها كما يجب أن تكون التّوفية، إنّها البشرى باختيار الله عزّ وجلّ له ليكون إماما للنّاس، وطالما تطاول النّاس على الرّئاسة وتناحروا من أجل الحصول عليها وتباغضوا وتقاتلوا، فإذا هي توهب لإبراهيم عليه السلام من حيث لم يشعر، ذلك أنّه سلك المسلك العقديّ الصّحيح الذي أفضى به إلى الإمامة الحقّ، لا الرئّاسة المزيفّة لأنّها الإمامة في العقيدة، إذ لا يزال إبراهيم يناضل من أجل صفاء العقيدة بتسفيه كلّ آلهة عبدها قومه، وتحطيم كلّ صنم يعبد من دون الله عزّ وجلّ مهما كان نوعه.

نعم إنّ رجلا كهذا جدير بأن يكون قدوة للنّاس أجمعين يقودهم إلى الخير، ويقدمهم إليه، ويكونون له تبعا.

ويا ليت البشريّة اليوم تستفيق من سباتها العميق وتختار مثل هؤلاء الأنبياء والرّسل لتستنير بما وهبهم اللهّ من نور، ونصيب من هذه البشريّة اليوم من بقايا أهل الكتاب يعتبرون أنهّم أحفاد إبراهيم، فيالليتهم كانوا أحفاده بحقّ، كما أنّ نصيبا منهم ممّن ينتسبون إلى

رسالة محمد عليه السّلام يعرفون إبراهيم حقّ المعرفة لما يتلى عليهم من الكتاب العزيز، ولكن أنّى هؤلاء من إبراهيم ومن الاقتداء به، غلبت عليهم شقوتهم، وتصور الكثير منهم ألاّ نجاة إلاّ في البعد عن إبراهيم وأمثال إبراهيم.

ولم يغفل إبراهيم لشفافية روحه وبعد نظره عن هذا المعنى فطلب من ربّه أن تظلّ هذه الإمامة في ذرّيّته فكان الردّ من الواحد الدّيان أنّ مثل هذه الإمامة محرّمة على من يدنّسون أنفسهم بالظّلم مهما كان نوعه، سواء كان شركا أو كفرا بنعم الله عزّ وجلّ.

وفعلا قد تدنّس العالم كلّه بمثل هذا الظّلم إذ نسبة المشركين هي الغالبة اليوم من أهل الوثنيّات بجميع أصنافها، ومن أصحاب النّظريات المبتدعة بكل أشكالها، وحتّى من بقي من أهل الكتاب فقد أفسدوا عقائدهم، من بين مجسّمة وأصحاب تثليث، أمّا جنبات العالم الإسلامي الفسيح فهي ترزح تحت نير هؤلاء وأولائك، وقد غرقت في الموبقات، وكفر جلّ من فيها بأنعم اللهّ إلاّ من رحم ربّك عزّ وجلّ.

نعم إنها إمامة العقيدة لكن النّاس قد أسقطوا حقّهم فيها بما كسبت أيديهم من الضّلالات والتّرهات، كل ذلك باسم الحضارة والمدنيّة والتّقدّم التّكنولوجي كما يقولون.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(٥٧ الحديد ١٦).

ولو خشعت قلوب المسلمين بحقّ لذكر الله، وما نزل من الحقّ لظلّوا أولى النّاس بهذه الإمامة إذ بيّن الحقّ تبارك وتعالى أنّ المدار في الارتباط بإبراهيم لا يقوم على بنوة النّسب، وإنّما يتمثّل في رابطة العقيدة، فلو وفّت البشريّة بما عهد إليها من كلمات في رسالة الإسلام الخالدة التي أرسى قواعدها إبراهيم عليه السلام، فامتثلت للأوامر وانتهت عن النّواهي، لنالت هذه الإمامة عن جدارة كما نالها إبراهيم من قبل. والحلّ ما يزال في يد أمّة الإسلام، ذلك أنّ الله عزّ وجلّ كتب على نفسه أن يحفظ كتابها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ (١٥ الحجر ٩)

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(٤١ فصّلت ٤١ ـ ٤٢).

ولم تبق هذه الإمامة مجرّد تصوّر في حياة إبراهيم بل أبرزها اللهّ عزّ وجلّ إلى حيّز الوجود، وهيّأ لها المناخ المناسب في بلاد اللهّ الحرام بعد أن حرمت منها مواطن أخرى لم يعرف أهلها سوى العناد والاستبداد.

لقد اختار الله عزّ وجلّ أن تكون بكّة المكان الذي تقام فيه هذه التّجربة الإيمانية الإبراهيمية الحنيفيّة

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(٣ آل عمران ٩٦).

وها هو السّياق القرآنيّ يصل إلى جنبات البيت العتيق ويبينّ لنا أن الله شاءت حكمته أن يجعله مثابة يثّوب إليها النّاس جميعا، يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وعلى عقيدتهم، يأله من بيت بسيط في مبناه، عظيم في معناه، إنّه بيت اللهّ الذي جعله للنّاس رمزاً ليعبد اللهّ فيه بحقّ، وليجتنب النّاس كلّ ما ألفوه من معابد لم يعرف فيها إلاّ الشرّك بالواحد الدّيّان.

جعل اللهّ في هذا البيت مقام إبراهيم عليه السّلام وأمر أن يتّخذ مصلىّ، وعهد إلى إبراهيم وابنه اسماعيل أن يطهّرا هذا البيت (بيتي) للطائفين والعاكفين والرّكّع السّجود.

تلك هي العقيدة الإيمانيّة الرّاسخة تبدو متجلّية في الوافدين على هذا البيت العتيق من كل فجّ عميق، طواف، واعتكاف، وركوع، وسجود.

فلا يلمس الإنسان في هذه الحركات البسيطة الميسورة سوى معاني الخشوع للذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وإلاّ كيف يتسنّى للإنسان العاقل أن يظلّ في دوران حول هذا البيت، أو أن يستقرّ فيه، أو أن ينحني ويعفّر وجهه في التّراب؟

تلك هي إمامة إبراهيم في العقيدة إذ علّم النّاس أنّ الأساس ليس في تلكم الحركات، وإنّما الأساس فيما يكمن في القلوب من نوايا صادقة توجّه كلّ ذلك بإخلاص تام للواحد الدّيّان.

وبذلك يصير الطّواف حركيّة إيمانيّة تجعل من الإنسان ذرّة من ذرّات الكون تلك الّتي ما تزال في دوران مستمرّ خاضعة لأمر باريها،

ويصير الاعتكاف تصفية للنّفس ممّا يلتصق بها من أدران، وسموّاً روحياً صادقا.

ويصير الركّوع إخضاعا للجسد المشرئبّ، تلبية لنداء رب العالمين.

ويصير السّجود وإن بدا ضربا من الإهانة والإذلال سموّاً ليس وراءه سموّ، لأنه تذلّل لله لا يكسب السّاجد المخلص إلاّ عزاً على عزّ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٣ المنافقون ٨).

سلام على إبراهيم وعلى إسماعيل لأنهّما فازا بسدانة هذا البيت العتيق، وانظر إليهما وهما يعملان على تطهيره وتهيئته لأهل الإيمان

والصّلاح في خشوع وضراعة تأخذك أريحيّة المؤمن المخلص فتتدفّق بين الطّائفين والعاكفين والركّعّ السّجود وكلّك تشعّ إيمانا تعجز عن التّعبير عنه الألسنة والأقلام.

ماذا يا إبراهيم ؟ إنّك إمام بحقّ، لقد علّمك ربّك أنّ هذا البيت لن يقرّ له قرار إلاّ إذا جعل اللهّ البلد الذي يوجد فيه آمنا، ورزق أهله من الثّمرات.

وها هو خليل الرحمن يتضرّع للرحمن بأن يجعل البلد آمنا، وأن يرزق أهله من الثّمرات، وتتجلىّ سمة العقيدة الرّاسخة في هذا التّضرّع، ذلك أنّ إبراهيم يميّز بين أهل الولاية وأهل البراءة، إذ قد يقطن أناس هذا البلد الأمين لا صلة لهم بالصّلاح والتّقوى، فلا حقّ لهم في مثل هذا الدّعاء.

إنّه لدرس إيمانيّ صادق يعلمه إبراهيم لبنيه وللنّاس جميعا، فهو يتأدّب مع الله في دعائه غاية الأدب، ويحددّ من يعني بهذا الدّعاء، ولذا على المؤمن الصّادق ألاّ يكيل الدّعوات جزافا لأهلها ولغير أهلها، وإنّما عليه أن يحترس كما احترس إبراهيم، وأن يحددّ من يعني، وقد علّم إبراهيم البشريّة من يحددّون في دعائهم، ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

وكلّنا يعلم أنّ الإيمان الحقّ ليس مجردّ ادّعاء وقول باللّسان، وإنّما

هو عقيدة في الجنان، وقول باللّسان، وعمل بالأركان، نعم ذاك هو الإيمان الذي ما فتىء الرّسل والأنبياء يدعون إليه ويغرسونه في قلوب العباد عبر الزّمان والمكان.

والإيمان بهذا المعنى هو الدّين وهو الإسلام

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (٣ آل عمران ١٩).

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

(٣ آل عمران٨٥).

وواضح أنّ هؤلاء هم الذين يعنيهم إبراهيم، في دعائه ويرجو الله أن يجعل لهم البلد آمنا، وأن يرزقهم من الثّمرات، وفعلا قد رزقهم من الثّمرات، وما يزال ذلك بفضله الذي ليس بعده فضل، وبفضل إيمانهم الرّاسخ.

ويسكت إبراهيم عن الشّطر الآخر، وهم الذين يجب أن يحرموا من تلكم الخيرات، فيحدّده السّياق القرآني الكريم

﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

البقرة ١٢٦

والكفر كما أشرنا فيما سبق قد يكون كفر شرك وقد يكون كفر نعمة بمعنى العصيان والتجرّؤ على الله عزّ وجلّ بارتكاب الكبائر وعدم التّورع عن الصّغائر، هؤلاء جميعا يحرمون من التّنعم بما دعا به

إبراهيم عليه السّلام ومأواهم جهنّم وبئس المصير إلاّ من تاب إلى الله قبل أن يفوت الأوان وفي ذلك يقول عزّ من قائل:

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

(٥ المائدة ٣٩).

وفي غمرة الفرحة برفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل الذي وهبه الله له على الكبر، دون أن تغفل عن تجربة إبراهيم السّابقة مع أبيه سادن المعبد الذي خشي أصناما، ظلاّ يتضرّعان إلى الله عزّ وجلّ بقلب منيب، فطلبا في الدّرجة الأولى حسن القبول إذ يعلمان يقينا أنّه لا قيمة لأيّ عمل إن لم يكن خالصا لله تعالى، وإن لم يحظ بالقبول والرّضا من السّميع العليم الذي يسمع الدّعاء ويعلم بما وراءه من النّية الصّادقة.

ثمّ طلبا من الله أن يثبّتها على ملّة الإسلام بما فيها من الاستسلام المطلق للّه عزّ وجلّ، كما طلبا من الله أن يجعل ذلك الإسلام من نصيب ذرّيتهما، ذلك لأنهّما أدركا أنهّا أمّ النّعم وأصلها، وشأن المسلم أنّه لا يكون مسلما إلاّ إذا أحبّ لغيره ما يحبّه لنفسه، وما بالك إذا كان هذا الغير من الذرّيّة.

تأمّل أيها المسلم مدى حرص إبراهيم عليه السّلام، وكذلك إسماعيل، على الثّبات على هذه العقيدة السّمحة، عقيدة الإسلام التي

تجعل من الإنسان إنسانا بحقّ، يشعر أنّ قوّته تكمن في إسلامه، وكذلك عزّه، وكذلك فضله، إذ لا حول ولا قوّة للإنسان إلاّ باللهّ العليّ العظيم.

نعم إنّه بهذا الإسلام يكون متين الصّلة باللهّ الذي خلقه من أجل العبادة

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

(٥١ الذّاريات٥٦ ـ ٥٨).

فتجده يمتثل لأوامر اللهّ، ويقف عند جميع نواهيه مقرّا بما هيّأ للصّالحين من جنّات النّعيم في دار القرار، وبما أعدّ للكافرين من عذاب الجحيم بما قدّمت أيديهم في هذه الحياة.

نعم إنّه بهذا الإسلام يكون مدركا أنّه ذرّة من ذرّات هذا الكون الذي لا يزال كلّ ما فيه يسبّح لربّ العالمين

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(١٧ الاسراء٤٤)

فيظلّ مسبّحا مع المسبّحين، منزّها اللهّ عن كل النّقائص ولاينسب إليه إلاّ صفات الجلال والجمال والكمال ذلك أن اللهّ يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللّطيف الخبير.

نعم إنّ الإنسان بهذا الإسلام يدرك أنّه لن يكون مسلما بحقّ إلاّ إذا أحبّ لأخيه الإنسان ما يحبّه لنفسه وسلم النّاس من يده ولسانه، وبهذا يسمو بالمدنيّة المغروزة في طبعه ليكوّن مجتمعا إيمانيّا تحسن فيه العلاقة بين الرّاعي والرّعية، وبين جميع أفراد الأمّة، نعم إنّه مجتمع الإخاء والمحبّة والمودّة لأنّ كلّ فرد فيه كبح من أنانيته وأسلم وجهه لله ربّ العالمين الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، في عالم الشّهادة وفي عالم الغيب.

لهذا وغيره من المعاني الكامنة في الإسلام ظلّ إبراهيم وإسماعيل يتضرّعان إلى اللهّ عزّ وجلّ أن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمّة مسلمة.

ثم لم يغفلا عن أن يطلبا من اللهّ عزّ وجلّ أن يبصرّهما بسبل العبادة الحقّ، هذه السّبل التي لا تدرك عن طريق العقل وإنّما تكتسب عن طريق الوحي، ذلك أنّ الإنسان عندما ترك وشأنه ظلّ سواء السّبيل وعبد ما يخطر على بال ومالا يخطر على بال، والعبادة كما لا يخفى هي إخلاص العبوديّة للهّ عزّ وجلّ بأداء ما يأمر به من صلاة وصيام وإنفاق وما إلى ذلك ممّا اشتركت فيه جميع الرّسالات السّماويّة لأنهّا تنبع من مشكاة واحدة، هي مشكاة الإسلام، لأنّ الدّين عند الله الإسلام.

ومن وجوه العبادة ما يجعل الله للإنسان من حركات رمزية تتجلّى في المناسك، والمنسك طريقة الزّهد والتعبّد، أو موضع تذبح فيه النّسيكة أي الذّبيحة، وقد جاء في الذكر العزيز

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ (٢٢ الحج٣٤).

وصدق من قال في شأن الهدى في الحجّ

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾

(٢٢ الحجّ ٣٧).

كما أنّ إبراهيم وإسماعيل لم ينسيا حقيقة من حقائق الإنسان تتمثل فيما ينتابه من الغفلة والنّسيان والغرور حيث يغفل عن فضل ربّه ويتّبع هواه فتضرّعا إلى اللهّ أن يتوب عليهما إن هما وقعا في المحظور، وتلك منّة ملّة الإسلام إذ لا يظلّ المخطىء تتبعه خطيئته إن هو تجرّد منها وندم على ما ارتكب، وتوجّه إلى اللهّ بقلب منيب يطلب الغفران من الذّنوب، فإنّه يجد ربّاً توّابا رحيما، والأساس في الإنابة وعدم الإصرار.

ثمّ إن إبراهيم بما آتاه اللهّ من الخبرة وبعد النّظر أدرك أنّ الذّريّة يصعب أن تستمرّ، على ملّة الإسلام، ولابدّ لها ممّن يجدّد لها هذا الإسلام ويحييه، لذلك تضرّع إلى اللهّ عزّ وجلّ مع إبنه إسماعيل أن يبعث في هذه الذّرية رسولا منهم، وحدّد أبرز مهامّه كما يتصوّرها

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة ١٢٩

إنّها درجة عالية في التّصوّر ولا غرابة فى ذلك لأنّ إبراهيم مؤيدّ بالمدد الرّبّاني، فهو يعلم علم اليقين جميع مقتضيات الرّسالة : آيات، كتاب، حكمة، كلّها ترمي إلى تزكية النّفس البشريّة وتطهيرها.

وبعد قرون وقرون يستجاب الدّعاء، ويرسل محمد ﷺ ليحيي ما اندرس من الحنيفيّة السّمحة، وسط جيل تقاذفته رياح الشرّك وهو يحسب أنهّ على ملّة إبراهيم، وفعلا تلا على قومه وعلى العالمين ما يتنزّل عليه آناء اللّيل وأطراف النّهار من الآيات البيّنات، وكان الكتاب قرآنا، وكانت الحكمة في كلّ عقيدة وقول وعمل إلى أن زكا من زكا من تلكم الذّريّة ذريّة إبراهيم باعتناقهم ملّة الإسلام التي أرسى قواعدها إبراهيم في نفس الرّبوع منذ أمره ربّه أن يقيم مع إبنه القواعد من البيت، وانطلقت راية الإسلام من هنالك لتعلو خفّاقة في أطراف العالمين، نعم ذلك فضل الله ، وتلك بركات دعوات الخليل إبراهيم عليه السّلام، سلام على ابراهيم إنّه من عباد اللهّ المحسنين، وأيّ إحسان أسمى من هذا الإحسان الذي أسداه إبراهيم للبشريّة جميعا، ولا غرابة في ذلك إنّه الأب الحنون الذي اصطفاه ربّه فجعله إماما وقدوة لا يقود الإنسانية إلاّ لما فيه خيرها، ولن يكون خيرها إلاّ في الإسلام.

فيا ويل تلكم الذّريّة الّذين رغبوا عن هذه الملّة السّمحة، وعزفوا عنها واستبدلوها بنظريّات البشر أو أديانهم الوضعيّة الضّالة المضلّة، يا ويلهم لأنهم فضّلوا السّخف على الرّشاد، وذلك لضعف أحلامهم رغم ادّعائهم أنّهم قمّة في الإدراك العقليّ القويم، نعم إنّهم سفّهوا أنفسهم وغرتهّم الأمانيّ وإذا بعالمهم عوض أن يكون عالم إسلام وسلام كان عالم عناد ودمار، انقلبت فيه القيم، وسيطر عليه قانون الغاب، حيث صار القويّ يبتلع الضعيف، صحيح أنّهم بعقولهم طاولوا النّجوم، وصنعوا العجب العجاب في عالم المادّة، لكنّهم من الرّوح خلاء، وما قيمة الآلة الصّماء إذا لم تكن خاضعة لقيم روحيّة سامية، نعم إنّ ضرّها لن يكون إلاّ أكثر من نفعها، وهذا ما تتجرّع البشريّة مرارته اليوم، ذلك هو منتهى السّفه والسّخف، ويا ليت هؤلاء جميعا رغبوا في ملّة إبراهيم عوض أن يرغبوا عنها، لأنّ الله اصطفى صاحبها في الدّنيا وبينّ أنّه في الآخرة من الصّالحين، هذه الملّة التي استجاب اللهّ فيها لخليله، وأحياها لتكون الرّسالة الخالدة عبر الزّمان وعبر المكان إلى أن تقوم السّاعة، وجعل معجزتها قرآنا ذخر فيه كلّ ما تحتاج إليه البشريّة في علاقتها مع باريها، وفي علاقاتها المادية والمعنويّة في ما بينها، لتكون بشريّة مسلمة تحقّق للإنسان إنسانيته الكاملة، وذلك لما اشتمل عليه الإسلام من تناسق بين الطّاقة الجسديّة والعقليّة والرّوحيّة في هذا الإنسان.

ويستمرّ السّياق القرآنيّ ملحاً على مدى قيمة هذا الإسلام فيؤمر إبراهيم أن يسلم فيقول : ﴿ أسلمت لربّ العالمين ﴾

وكذلك يظلّ أبناؤه وأحفاده يوصي بعضهم بعضا بالإسلام والإخلاص في العبادة لله، ويقرّ الجميع أنهّم مسلمون

﴿ ونحن له مسلمون ﴾.

ثم يمضي السّياق لينفي عن إبراهيم زعم اليهود والنّصارى، ويحقّق أنّه كان حنيفا مسلما وما كان مشركا ولا يهوديّا ولا نصرانيّا كما سبق أن بيّنّا، ويثبت أنّ الإسلام هو

﴿ صبغة الله، ومن أحسن من اللهّ صبغة﴾

والمتأمل في هذه الآيات التي تفوح بذكر إبراهيم، وتثبت يده البيضاء على أمّة الإسلام يتبينّ أنهّا تؤكدّ بحقّ على أنّ الدّين عند اللهّ الإسلام، وهاك عدد ورود هذه الصيغة في هذه الآيات التي لم يبلغ عددها العشرين (مسلمين، مسلمة، أسلم، أسلمت، مسلمون، مسلمون، مسلمون).

إنّ هذه الصّيغ المختلفة توحي بحقيقة ثابتة تتمثّل في أنّ هذا الإسلام ليس من اجتهاد فرد حتى وإن كان إبراهيم، وإنّما هو أمر من اللهّ وعطاء من فضله، شاءت حكمة ربّنا أن يتحوّل إلى حيّز الواقع عن طريق إبراهيم الذي امتثل للأمر واستوعب الوحي فاستجاب الله

لدعائه وجعل في ذرّيّته أمّة مسلمة لله إذ ما فتىء الصّالحون منهم (من آمن منهم) يقرّون عقيدة وقولا وعملا أنهّم مسلمون (ونحن له مسلمون) إلى أن شاءت حكمة اللهّ عز وجلّ أن توقف إرسال الرّسل فكان مسك الختام بسيد الأنام الذي كمل على يديه الإسلام

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(٥ المائدة ٣).

ذلك فضل اللهّ، وليس للإنسانية اليوم إلاّ أن تكرع من معينه الصّافي إن أرادت الفوز في الدّارين، دار العمل ودار الجزاء.

﴿ إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين ﴾

وها نحن قال لنا ربّنا أسلموا فلنقلها صريحة صادقة كما قالها إبراهيم وكما قالها إسماعيل، وكما قالها إسحاق، وكما قالها يعقوب، وكما قالها الأسباط، وكما قالها موسى، وكما قالها عيسى، وكما قالها محمد، وكما قالها غيرهم من الأنبياء، والمرسلين والصالحين ممّن عرّفنا اللهّ وممن لم نعرف : ﴿ أسلمنا لربّ العالمين ﴾.

وبهذا يتجلىّ أنّ إبراهيم نموذج للعبد المسلم الصّالح الذاكر الشاكر، ذاك أنّ كل معتقده وأقواله وأعماله خاضعة خضوعا كاملا لسمات العبد المسلم.

يأمره اللهّ عزّ وجلّ أن يسكن من ذرّيته بواد غير ذي زرع فلا يتردّد لحظة بل يتحوّل بزوجته وفلذة كبده ذاك الذي رزقه اللهّ إيّاه على الكبر، ويلقي بهما في جبال بكّة وهو يقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير، ذاك هو الإسلام الحقّ، وإن بدا الأمر بعيدا عن المعقول في منطق الإنسان المحدود الضّيق، لكّنها حكمة اللهّ الذي قدّر فهدى، ولم يكن أمره عبثا، وإنّما أراد بعبده المسلم خيرا حينما ابتلاه مثل هذا الابتلاء وهو عليم بضعفه البشريّ وبصموده الإيمانيّ، فصمد إبراهيم وكان مسلما بالعمل فكرّمه اللهّ بفضله بأن جعل هذا الوادي الذي لا زرع فيه، هذا الوادي الذي يحيط به الجبال السّود من كل مكان، وكلّ شيء فيه ينبىء بالهلاك والموت، موضعا لأوّل بيت يعبد فيه اللهّ بحقّ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

(٣ آل عمران ٩٦ ـ ٩٧).

كما أنّ هذا الإسلام ينعكس على تلكم الزوجة التي لم يكن منها إلاّ لتسلم أمرها لربهّا ولزوجها، وإذا بها مع رضيعها تسعى بين جبلين أخشبين بين الصّفا والمروة، وقد أضناها الجوع والعطش وكادا يذهبان برضيعها وبها، ولكنّه الإسلام للهّ عزّ وجلّ تتجلىّ بركاته لأن اللهّ يبتلي ولا يفرّط في عباده الصّالحين، وفي اللّحظة الحرجة يتدفّق معين الحياة

من تحت قدمي الولد الذي كان على أبواب الهلاك، إنّه ماء زلال، وما قيمة ركض ولد رضيع في جبل قدّ من الحجارة الصمّاء، إنها عين اللهّ ترعى الذين يسلمون أمرهم للهّ مخلصين له الدّين، فالإسلام الخالص هو السرّ في انطلاق الحياة في تلكم الرّبوع بمكة المكرّمة، تدفّق الماء وعمر المكان بأمر من اللهّ إذ لا حياة للإنسان بدون ماء، فمنه يشرب وبه يغتسل ويتطّهر، وباختلاطه بالأرض تربو وتنبت ما يحتاج إليه الإنسان والحيوان لتستقيم لهما الحياة، واستقامت الحياة هناك، لكن ماذا بعد هذا؟

ذلك سرّ الحياة المادّيّة لكن لا قيمة لها بدون طاقة روحيّة، وإبراهيم بذلك عليم، ويأتي أمر اللهّ برفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل، فيمتثلان مسلمين للهّ ربّ العالمين وكلّهما ضراعة وشكر للهّ عزّ وجلّ الذي حوّل حياتهما من عسر إلى يسر، وكلّ ما جاء من اللهّ يسر بالنّسبة إلى المسلم الربّانيّ، فيضرعان لله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يجعل البلد آمنا وأن يرزق من آمن من هذه الذريّة من كلّ الثّمرات، ويستجاب الدّعاء، ويكون خاتم الأنبياء في تلكم الرّبوع المباركة التي لم يتحرّك فيها شيء إلاّ بالاستسلام الكامل للهّ ربّ العالمين.

ويكرّم إبراهيم ببركات إسلامه فيؤمر بأن يؤذّن في النّاس بالحجّ

ليأتوا رجالا وعلى كلّ ضامر من كلّ فجّ عميق، وإذا بالمكان تكتنفه القداسة الإلهية وتهوي إليه الأفئدة من كلّ أنحاء المعمورة، نعم يسلم إبراهيم فينادي وليس بين يديه آلة تبلّغ الصّوت، ولكنّه يحمل قلبا يعلم أنّ اللهّ على كلّ شيء قدير، وإذا بروّاد بيت اللهّ الحرام يلبّون النّداء وهم في عالم الغيب، وكلّ حسب ما قدّر اللهّ له من أداء زيارات لهذا البيت المعمور، نعم إنّه الإسلام قبول خالص لأمر اللهّ وبدون أيّ تردّد.

إلى هذا الحدّ صحبت الإسلام سلامة في الظّاهر والباطن، ولكن تأتي الرّؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي

﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾

(٣٧ الصّافات ١٠٢)

إنّ الإسلام في هذه المرّة ليس بالأمر الهينّ في مقياس البشر العاديين بل إنّه ضرب من الإجرام الذي ليس بعده إجرام، اذ كيف يقبل الإنسان على ذبح ابنه لمجرّد رؤيا في المنام؟

هل يتلجلج الأب، أو يصرخ الولد، كلاّ إنّه الإسلام وكفى

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

(٣٧ الصّافات ١٠٣ ـ ١٠٧).

يمرّ الأب المدية المسنونة فلا تفعل فعلها كما لم تفعل النّار من قبل فعلها وكانت بردا وسلاما، تلك ثمرات الإسلام تتجلّى واحدة بعد أخرى في سيرة هذا الذي جعله الله إماما واتخّذه خليلا، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر.

ولقائل أن يقول لسنا من المعصومين لنبلغ مثل هذه الدّرجات، والجواب: على قدر عمق العقيدة يكون الابتلاء، والمهمّ في الإسلام والاستسلام.

ثمّ تتكامل سمات الإسلام في جنبات هذا البيت العتيق بما أمر اللهّ إبراهيم أن يقيم من شعائر أبرزها الطّواف وذبح الذّبائح، كلّ ذلك ليزداد الحجّاج تقوى وقدرة على الإسلام الحقّ.

ولم يكن إبراهيم كما علمنا أنانيّا في إسلامه بل جعلها كلمة باقية في عقبه واختار لهذا العقب الذي عمر الرّبوع المقدّسة أفضل الأسماء ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (٢٢ الحجّ ٧٨).

يالها من تسمية زكيّة تسمو بصاحبها لتجعله على صلة مباشرة مع خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم وعدّله وسوّاه.

وإنّ أمّة محمدّ ﷺ لجديرة بهذه التّسمية وبهذا الانتساب بشهادة القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(٣ آل عمران ٦٨).

ولنعلم علم اليقين أنّنا لن نكون جديرين بهذا الانتساب وبهذه التّسمية إلاّ إذا كنّا مسلمين قلبا وقالبا.

وقد بقيت بصمات هذه الرّابطة الإسلامية بين الجدّ وبين الحفيد وأتباعهما في كلّ ما فرض على أتباع الحفيد، وبصفة أدقّ في الرّكن الخامس من أركان الإسلام ألا وهو الحجّ إلى البيت العتيق.

ومعلوم لدى كلّ مسلم أنّ في كلّ حركة من حركات هذه الفريضة وسكناتها تتجلّى سمات الاستسلام والطّاعة، إنّه يرحل، ويطوف، ويصلّي خلف المقام، ويقبّل الحجر، ويشرب من زمزم، ويسعى بين الصّفا والمروة، ويصعد لمنى، ويقف بعرفات ويقف عند المشعر الحرام، ويرجم، ويذبح، ويحلق، وهو في ذلك لا يرتدي من اللّباس إلاّ أقلّه، نعم إنّه يفعل كلّ ذلك إسلاما لربّ العالمين، وطاعة لما فرضه عليه من حجّ.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣ آل عمران ٩٧).

بهذا الإسلام في أداء هذه الفريضة يتكوّن للمسلمين مؤتمر للتّعارف والتّشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتنظيم ذلك العالم

الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرّة في كل عام، في ظلّ الله، بالقرب من بيت الله، وفي ظلّ الطّاعات البعيدة القريبة والذكريات الغائبة الحاضرة في أنسب مكان وأنسب جوّ وأنسب زمان.

وبهذا وغيره ندرك كيف أنّ الإسلام يوحّد المشاعر والاتجّاهات، ويتوجّه بها كلّها إلى الله، ومن ثّم يعنى بتوجيه الشّعور والعمل والنّشاط والعبادة، والحركة والعادة إلى تلك الوجهة الواحدة، وبذلك تصطبغ الحياة كلّها بصبغة العقيدة صبغة الإسلام.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾

(٢ البقرة ١٣٨).

وهكذا لا يخطو المسلم في حياته خطوة ولا يتحرّك في ليله أو نهاره حركة إلاّ وهو ينظر فيها إلى الله، ويجيش قلبه فيها بتقواه، ويتطلّع فيها إلى وجهه ورضاه، فإذا الحياة كلّها عبادة تتحقّق بها إرادة الله في خلق العباد وتصلح بها الحياة في الأرض وهي موصولة بالسّماء، وصدق إبراهيم حيث قال :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(٦ الأنعام ٧٩).

٣ ـ إنهّا الحنيفيّة السّمحة

ذلك هو الإسلام ملّة إبراهيم، وهو أيضا الحنيفيّة السّمحة، وإن تكرّرت مادة س. لم. د. في قصّة إبراهيم فقد تكرّرت أيضا مادةّ ح. ن. ف وذلك فيما يلي :

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ (٢ البقرة ١٣٥).

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

(٣ آل عمران٦٧).

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾

(٣ آل عمران ٩٥).

﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾

(٤ النّساء ١٢٥).

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾

(٦ الأنعام ٧٩).

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(١٦ النحل ١٢٠).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(١٦النحل ١٢٣).

كما جاء الخطاب موجها للرّسول محمّد عليه السّلام أن يقيم وجهه للدّين حنيفا

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(١٠ يونس ١٠٥).

ولا يخفى أن الحنيفيّة في اللغة هي الميل، والمعنى أنّ إبراهيم حنف إلى دين الله أي دين الإسلام، وقد جاء في الحديث الشّريف : (أحبّ الأديان إلى الله الحنيفيّة السّمحة).

وصدق من قال:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(٤ النساء ١٢٥):

وكيف لا يكون أحسن وهو الذي شرع اللهّ تعالى للعالمين كما جاء في قوله :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(٤٢ الشورى ١٣).

فليس للمسلمين اليوم إن أرادوا الفلاح في الدارين إلاّ أن يكونوا

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ (٢٢ الحجّ ٣١).

حنفاء للهّ في تصورّهم الإيماني فلا يلجأون إلاّ إلى اللهّ ولا يستعينون إلاّ به في الصّغيرة والكبيرة، حنفاء للهّ في تصوّرهم السّياسي فلا ينهلون إلاّ من معين كتابة ومن هدى سنة نبيّه عليه السّلام، حنفاء لله في تصوّرهم الاجتماعي يقيمون مجتمع الاخاء والمودت، مجتمع الأمن والسّلام، حنفاء لله في تصوّرهم الأخلاقيّ لأنّ رسولهم إنّما بعث ليتمّم مكارم الأخلاق، حنفاء في تصورّهم الاقتصادي يحلّون البيع ويحرمون الرّبا ويدركون أنّه

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

(٨٥ المصطففين١ ـ ٣).

حنفاء للهّ في تصوّرهم الثّقافيّ الشّامل يقيسون كلّ ما ينتجون وكلّ ما يفد عليهم بميزان اللهّ الذي يفضح كلّ فكر لا يأتي إلاّ لنشر الفساد، وأخيرا وليس بآخر حنفاء للهّ في تصوّرهم للحياة الدّنيا على أنّها دار عمل تعقبها دار جزاء.

هكذا كان محمدّ ﷺ حنيفا، وهكذا كان أصحابه الّذين هاجروا معه والذين ناصروه حنفاء لله غير مشركين به في كل حركاتهم وسكناتهم ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (٨٩ البينة ٥). ديدنهم آناء اللّيل وأطراف النّهار أن تكون كلمة اللهّ هي العليا وكلمة الذين كفروا السفّلى، فكان ذلك بحقّ في مجتمع المدينة الفاضلة مدينة رسول الله ﷺ، تلك التى أشعّ منها نور الحنيفيّة السّمحة في ربوع العالمين وما يزال.

المحور الثالث

من ثمرات العقيدة الرآسخة

لقد علمنا ممّا سبق أن إبراهيم أرسى أسس كلمة التّوحيد لا إله إلاّ اللهّ حيث حارب كلّ المعبودات المزيفّة وضحّى من أجل ذلك بنفسه، وأقرّ أنّ اللهّ هـو المعبود بحقّ فأسلم إليـه جسده وعقلـه وروحه، وفي هذا عبرة لكل مّن يريد أن يعتبر.

وبعد ثبـوت هذا المعنى تعـالى معي ـ يـا طالـب الاستقامة ــ نعش لحظـات في ظلال القـرآن الكـريم عبر مـا ورد فيه عن إبـراهيم عليـه السّلام، ولنبحث معـا عمآ نسب للهّ عزّ وجلّ من صفات تزيـد عقيدة المسلم رسوخا على رسوخ.

إنّ مثل هذا البحث يسفر عن حقيقتين جليّتين :

الأولى : أنّ إبراهيم عليه السّلام لم يخطر بباله ولو للحظة أن يفكّر في حقيقة الخالق، وذلك لسـلامة فطرتـه إذ أدرك ألاّ سبيل للمحدود أن يدرك كنه اللاّمحدود.

الثّانية : أنّ إبراهيم عليه السّـلام كان يستجلي عظمة اللهّ من خلال صفاته وأفعـاله، ناهيك أنّه بكل دلال رجا من اللهّ عـزّ وجلّ أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئنّ قلبـه، وفعـلا كما بيّنـا فيما مضى مكنّـه الله تعالى من ذلك حسب مـا تستوعبـه طاقة الإنسـان المحدودة، فماذا عمآ ورد في قصـة إبـراهيم عليـه السّـلام عن أسماء اللهّ وصفـاتـه الـذّاتيـة والفعليّة فيما يتعلّق بالكون وبالإنسان وبالأنبياء والرسّل وبالآخرة؟

١ ـ عظمة الله عزّ وجلّ في تصريف الكون

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

(٦ الأنعام ٧٥).

وقال :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ﴾ (٤ النساء ١٢٦).

وقال :

﴿ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (٦ الأنعام ٧٩).

وقال : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ ﴾ (٦ الأنعام ٨٠).

وقال : ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ ﴾ (٦ الأنعام ١٦٤).

وقال : ﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨).

إنّ مثل هذه الآيات لا تحتاج إلى شرح كبير ذلك أنّ المعبود الذي يدعو إبراهيم النّاس إلى عبادته يستحقّ وحده أن يعبد بحقّ، ذلك أنّه هو الذي فطر مخلوقات تكبر في عين الإنسان وهي السّموات

والأرض، أي أنّه أبدع الكون كلّه من عـدم وبدون سابق مثال، وهو بذلك القادر على تصريف ما في هذا الكـون، يعلم فيه ما ظهر للنّاس ومـا بطن، وكلمـة ملكـوت تشير إلى ما وراء هـذا الكـون من عـالم الغيب، هـذا العالم الـذي يطلع الله المصطفين من عباده على بعض مـا فيه من الأسرار، يطلـع الله المصطفين من عباده على بعض مـا فيه من الأسرار.

إنّه سبحانه ربّ كلّ شيء، ووسع كل شيّء علما.

سبحانـه اللهّ أمع كل هـذا يجرؤ الإنسان، وهو ذرّة مـن ذرّات هذا الكـون، على اللهّ فينكـر وجـوده أو لا يعترف بفضلـه كما فعل ذلك الجاحد أمام إبراهيم حين ادّعى أنّـه يحيي ويميت، فلّما بينّ له إبراهيم أنّ الله يأتي بـالشّمس من المشرق ودعاه إلى أن يقلب الـوضع ويأتي بها من المغرب لم يكن منه إلاّ أن اندحر على نفسه ولم يأل جوابا.

فتعسا ثم تعسـا لأولئك الذين مـا يزالـون عبر المكان وعبر الـزّمان ينكرون عظمة الخالق المتجلّية في آثـار خلقه لهذا الكون، فهل استطاع واحد منهم أن يقلب نـاموسا واحدا من نواميـس هذا الكون؟ ونحن نعلم أنهّم مهما أوتـــوا من علـم لم يكن لهم إلاّ أن ينتبهـــوا لبعض النواميس الإلهيـة التي لا يكابر أمـامها إلاّجاحـد، وحقيق بأهل القرن العشرين اليوم وقد اهتدوا إلى مالم يهتـد إليه غيرهم من هذه النّواميس

الكونيّة أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يعودوا إلى الله الذي وسع كلّ شيء علما إن أرادوا أن يفوزوا في الدّارين، وإن أرادوها متعة ظاهرة في الدّنيا فلن يجنوا إلاّ النّدم يوم تبدّل الأرض غير الأرض وتطوى السّموات كطيّ السّجلّ للكتاب، ويندثر الكون كلّه، وتقوم السّاعة، ويكرّم من يستحق التّكريم، ويهان من كان يستهين بالله وبدينه.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

(١٤ إبراهيم ٤٨ ـ ٥١).

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

(٢١ الأنبياء ١٠٤).

٢ ـ عظمة الله وفضله يتجلّيان في الإنسان

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾

(٤٣ الزخرف٢٦ ـ ٢٧).

وقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٢٦ الشعراء ٧٨).

وقال : ﴿إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت ﴾.

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

(٢١ العنكبوت١٩).

وقال : ﴿ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضرّكم ﴾

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (البقرة ١٢٦).

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾

(٢٩ النعكبوت ١٧).

وقال ﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾

(٢٢ الحج ٢٨).

وقال :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ

(١٤ إبراهيم ٣٨ ـ ٤٢).

وقال : ﴿ ومن عصاني فإنّك غفور رحيم ﴾ (١٤ إبراهيم ٢٦).

وقال : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ ﴾

(٦ الأنعام ٨٠).

وقال :

﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(٩ التوبة ٧).

وقال : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ

يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

(٢٦ الشّعراء ٧٥ ـ ٨٢).

بمثل هذه الآيات وغيرها ممّا جاء في سياق قصّة إبراهيم وغيرها في الكتاب العزيز يتبيّن الإنسان فضل اللهّ عليه، ذلك أنّه هو إلهه وهو ربّه الذي لولاه لما أمكن له أن يوجد إذ هو الذي فطره وخلقه بعد أن لم يك شيئا، ومعلوم أنّ كلّ ما يأتي من نعم بعد ذلك يترتّب على هذه النّعمة الأولى ألا وهي نعمة الوجود، نعم إنّ اللهّ عزّ وجلّ هو الرزّاق ذو القوّة المتين، لذلك ليس على الإنسان إلاّ أن يبتغي عنده الرّزق، ألم يقل إبراهيم : الذي يطعمني ويسقين ؟ وكل رزق في هذه الحياة الدّنيا لا يمكن أن ينتفع به الإنسان إلاّ إذا كان شبعان ممّا يهب اللهّ من الطّعام على اختلاف أنواعه مما تنبت الأرض أو ممّا أحلّ اللهّ من اللّحوم، وكان ريّانا ممّا ينزّل اللهّ من ماء، أو ممّا يدّخر منه في باطن الأرض.

ماذا يريد الإنسان بعد ذلك ؟ ليس له إلاّ أن يلتمس الهداية من واهبها، واستمع إلى إبراهيم كيف يتكرّر على لسانة هذا المعنى ﴿الذي فطرني فإنّه سيهدين﴾ ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ ، فالإنسان في هذه الدّنيا في ابتلاء مستمر ولم يسلم من ذلك حتى الصفوة من الأنبياء والرّسل ﴿ إنّ هذا لهو البلاء المبين ﴾ ، فليس له

والحال هذه إلاّ أن يخلص العبادة لهذا الربّ العظيم ، فيمتثل لأوامره وينتهي عند نواهيه لأنّه يدرك تمام الإدراك بفطرته السّلمية وعقله الواعي أنّ اللهّ هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يبدىء ويعيد ، وهو الذي ينفع ويضرّ، وهو الذي يعلم ما يخفي الإنسان وما يعلن وأنّه ليس بظلاّم للعبيد، هناك مع أعمال العبادة كلّها يتوجّه إلى اللهّ بالدّعاء وهو موقن غاية اليقين أنّ اللهّ يسمع لدعائه، وأنّه يتقبّل منه هذا الدّعاء فيقضى جميع حوائجه، ويغفر جميع ذنوبه لأنّه ربّ غفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحا وكان من المسلمين.

تلك هي صلة الإنسان المسلم برّبه، عبوديّة مطلقة لا تزيده إلاّ عزاّ لأنّه يدرك أنّ اللهّ الذي لا إله إلاّ هو، هو الواحد في ذاته لا قسيم له، وهو الواحد في صفاته لا شبيه له، وهو الواحد في أفعاله لا شريك له.

ذلك هو التصّور الإيماني الذي يحتاج إليه العالم اليوم هذا العالم الذي سلبت المادّة فيه عقول من يزعمون أنهّم سادة المفكّرين، ولكنّهم يحسبون أنهّم يحسنون صنعا وهم في الحقيقة في ضلال مبين، وضلالهم ما يزال ينكشف للبشريّة التّائهة يوما بعد يوم، لأنهّم التمسوا الهداية

من غير باريها، وقد صدق إبراهيم حيث يقول

﴿ إنّني براء ممّا تعبدون إلاّ الذي فطرني فإنّه سيهدين ﴾.

نعم إنّ البشريّة اليوم في حاجة إلى أن تقف وقفة تأمّل عند موقف إبراهيم هذا أمام قومه، إنّها البراءة ممّا يعبدون، إنّها العداوة للزّيف الذي بلّد عقول القوم وأفسد طباعهم، وإن كانت البشريّة اليوم في عالمها المتحضرّ لا تعبد أوثانا كأوثان قوم إبراهيم، ولا نجوما وأفلاكا ـ مع العلم أنّه ما يزال على وجه البسيطة من هذا الصّنف كثير بل لعلّ العدد الأوفر من البشريّة على هذه الشّاكلة ـ بل استبدلت عنها معبودات أخرى ومن شكل آخر مغر يكشف تتابع الأجيال عن زيف ما كان المعبود الأسمى لدى الجيل السابق، فكم ألّه النّاس النظريّة الماركسيّة من ١٩١٧م إلى ماض ليس ببعيد! وإذا بواقع أهلها اليوم يصرخ أنّ سبعين سنة من التّجربة تبيّن أنّها سراب في سراب، مع العلم أنّ هذه الماركسيه قد أثبتت أنّ الليبيراليّة التي سبقتها سراب في سراب، وليست إلاّ ضروبا من الاستغلال والاستعباد.

نعم صدق إبراهيم، ليس على المسلمين إلاّ أن يقولوا مخلصين «إنّنا براء ممّا تعبدون» إلاّ الذي فطرنا فإنّه سيهدينا.

وفعلا عند ما تمّت الهداية من عند باريها للرّعيل الأولّ من المسلمين من أصحاب الرّسول محمد ﷺ لم ينتشر في العالم إلاّ السّلم والسّلام والرّخاء، ولم يكن من النّاس إلاّ أن دخلوا في دين اللهّ أفواجا، ولكن غفل خلف هؤلاء عن المسلك السّويّ، وعاد النّاس إلى التّيه إلاّ من رحم ربّك، وللهّ في خلقه شؤون.

٣ ـ حاجة الإنسان إلى الوحي

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(٢ البقرة ١٢٩).

وقال : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(٢ البقرة ١٣٠).

وقال :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(٢ البقرة ١٣٦).

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(آل عمران ٣٣ ـ ٣٤).

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

(٣ آل عمران ٨٤).

وقال: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

(٤ النّساء ٥٤).

وقال :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(٤ النّساء ١٦٣ ـ ١٦٦).

وقال : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦ الأنعام ٨٣).

وقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(الأحزاب ٨٧)

وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾

(٨٧ الأعلى ١٨ ـ ١٩).

نعلم من هذه النّصوص القرآنيّة الكريمة أنّ الله اصطفى إبراهيم واجتباه وأوحى إليه وأنزل عليه صحفا، كما نعلم أن إبراهيم نفسه تضرّع الى ربّه عندما امتثل لأمره ورفع القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل في مكّة المكرّمة أن يبعث في أهلها رسولا منهم.

وإذا علمنا أنّ الله اصطفى آدم من قبل واستجاب لدعاء إبراهيم فأرسل سيّدنا محمّدا وجعله خاتم النبّيين والمرسلين ندرك أنّ فضل اللهّ على الإنسان عظيم، ذلك أنّه لم يكله إلى نفسه، وإنّما تكرّم عليه واختار له بشرا من جنسه، وأيّدهم بالوحي ليبقى هذا الإنسان على صلة بربّه عبر الزّمان وعبر المكان.

إنّ هـؤلاء الأنبياء والـرّسل بعـد أن أخـذ اللهّ منهم الميثاق شـاءت حكمتـه أن يجعلهم مبشّـرين ومنذريـن، وقد أيـدّهم في أداء وظيفـة التّبليغ بمعجزات تتنـاسق وما برع فيـه أقوامهم إلى أن كـانت معجزة الرّسول محمـد قرآنا عربيا مبينـا عجز القوم عن أن يأتوا ولـو بآية من مثله رغم طول باعهم في فصاحة اللّسان.

وفعلا إنّ الإنسـان لفي أشدّ الحاجة إلى من يأخذ بيـده ليحافظ على سلامة فطرته، وقد علمنا من قبل كيف سعى إبراهيم إلى تطهير فطرة القـوم لما ألمّ بها من دنس الشرّك، وإلى أن يـربط بين فطـرتهم وبين إدراكهم الـواعي، فخاطبهم بما يفهمـون، وحاول أن يتـدّرج بهم إلى الاعتراف بالـرّبوبيّـة لله الواحد الـدّيان، فبشّـرهم بما ينتظر المسلمين لربّ العالمين من طمأنينـة في الحياة الدّنيا، وسعـادة في الدّار الآخرة، وأنذرهم بما ينتظر الكافرين من فزع نفسيّ في هذه الحياة الدّنيا ، ومن عذاب أليم في دار القـرار، واستمرّ عليه السّـلام في دعوته مـؤيداً من ربّ العزّة رغم طول العناد إلى أن ألقـوه في الحجيم وكانت النّار عليه بردا وسلاما، ومع ذلك غلبت عليهم شقوتهم ولم يؤمن له إلاّ لوط، معنى ذلك أنّه ليس على الرّسول إلاّ البـلاغ، وفعلا فقد بلّغ الأمانة، وأدّى الـرّسالة، ثم هاجر إلى ربـه وانتقل بأمر من الله إلى موطن آخر ليستمرّ في الدّعوة إلى أله.

واستمع إلى إبراهيم وهو يحدّد عن بيّنة وظيفة الرّسل عندما دعا الله عزّ وجلّ أن يبعث في أهل مكّة رسولا منهم، إنّه يتلو الآيات، إنّه يعلّم الكتاب، إنّه يعلم الحكمة، إنّه يزكّي النّاس، وقد استجاب الله لندائه، وأرسل بعد مئات السّنين محمدا ﷺ نبياً رسولا في مكّة المكرّمة ليكون رحمة للعالمين.

نعم لقد تنزّل عليه الوحي، وتمّ اللّقاء بينه وبين ملك الوحي فرآه على صورته الحقيقية ملكا كريما، وجلس إليه على صورته البشريّة، واستمع إليه كما يستمع إلى صليل الجرس، وإذا بها في كل الأحوال آيات تتنزّل فيرتّلها هذا النبى الأمى آيات بينات بلسان عربي بين تقوى صلة الإنسان بربّه، وتصلح من أحواله ليفوز بمرضاة رب العالمين، وتتكامل هذه الآيات فيما بينها فإذا به كتاب، نعم إنّه الكتاب الّذي أراده اللهّ هدى للعالمين، إنّه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكتب الله على نفسه أن يحفظه.

لقد علم إبراهيم ــ وهو الخبير بحقيقة الرّسالة ــ أنّ البشريّة تصبو إلى الحكمة، وذلك بتنزيل الأمور منازلها الحقيقية لتستقيم الحياة، فرجا من اللهّ عزّ وجلّ أن يكون هذا الرّسول معلّم الحكمة، وفعلا لقد كان ذلك لأنّه وارث الرّسالات جميعا ومجدّد ما اندرس من ملّة الإسلام، فكان دينه الدّين الحقّ عند الله

﴿ إن الدّين عند الله الإسلام﴾.

وهل تستطيع أيّة حكمة بشريّة مهما كانت صينيّة أو هنديّة أو

فارسيّة أو روميّة أو رومانيّة أو عربيّة أن تظاهى حكمة الإسلام، لا والله لأنّها جميعا من عطاء الإنسان المحدود، بينما حكمة الإسلام من عطاء اللهّ الحيّ القيّوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الغنيّ عن العالمين.

وقد تجلت حكمة الإسلام في بساطة العقيدة وسلامتها : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، إنّها بيعة تحوّل وجهة الإنسان من التّعدد إلى التّوحيد ليدور في فلك الكون كلّه، ألم يقل إبراهيم من قبل ﴿ إنيّ وجّهت وجهي للذي فطر السّموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. ﴾.

وبتحّول هذه الوجهة تتجليّ حكمة الإسلام في كلّ ما ينبني على ذلك من قول وعمل، فإذا بذلك الإنسان الذي كان يحرّك لسانه بدون قيد ولا شرط يلتزم ـ والله الذي لا تخفى عليه خافية عليه رقيب ـ بألا يقول إلاّ خيرا في السرّ والعلن.

وإن أخطأ سرعان مايثوب إليه رشدة من تلقاء نفسه فيستغفر الله ويقلع بسرعة عمّا صدر منه.

وكذا الأمر بالنّسبة إلى العمل سواء أكان من باب العبادات أو المعاملات، فإذا به يصليّ مخلصا لله عزّ وجلّ فتنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، وإذا به ينفق سخاء ليتمّ التّكافل في المجتمع، وإذا به يتعايش في إخاء مع الآخرين لأنّه يدرك أنّه لن يتكون وجهته للذّي فطر السّموات والأرض بحقّ إلاّ إذا أحبّ لأخيه ما يحبّ

لنفسه ، كما أنّه إن غلبت عليه شقوتـه وأخطأ في باب التّعامل تفرض عليه حكمة الإسلام أن يتوب ويرجع لأنّه يدرك أنه إذا وقع التّـفطّـن إليه يقام عليه الحدّ، وإن مـرّ في هذه الـدنيا بسلام فإنّـه لن ينجو بين يدي الله يوم يكشف الغطاء في دار الجزاء.

تلك حكمــة الإسـلام ، ربــاط وثيق بين عـالم الغيب وبين عــالم الشّهـادة، وبين دار الجزاء ودار العمل في ظلّ عقيــدة راسخـة في أنّ الأمـر لله من قبـل ومن بعـد، وأنّ الله لا يعـزب عنــه مثقـال ذرّة في الأرض ولا في السّماء.

وليس الغرض من الآيات والحكمة في الرّسالات إلاّ تزكية الإنسان وتطهيره ممّا يعلق به من أدران في مسيرة الحياة الطّويلة بمقياس البشر، القصيرة عند الله.

وفعلا فقد طهّر الإسـلام الجزيرة العربيّة والعالم من بعـد ممّارسا فيه من الشرّك وما دونه من جميع أنواع الكفر بنعم الله عزّ وجلّ.

نعم إنّـه عمل عقدين من الـزّمن ونيف في التّـزكية والتّطهير حـوّل وجهـة الجزيرة العـربية تحويـلا جذريّـا وصار العـرب أمّة زكيّـة تعلّم النّاس ألاّ فرق بين عربي وغير عربي إلاّ بالتّقوى ﴿إنّ أكركم عند الله أتقـاكم﴾ فتعـانقت الأجنــاس والشّعـوب لتتعـاون جميعـا على نشر الإسلام في أطـراف المعمورة، وإذا بـالطّهر يحلّ حيـث يحلّ الإسلام،

ولن يزال الأمر على هذه الحال ما أخلص المسلمون لإسلامهم في كل زمان ومكان.

وبهذا ندرك أن إرسال الرّسل وتأييدهم بالوحي لم يكن مجرّد ادّعاء من هؤلاء النّاس كما يزعم الزّاعمون الذين لم يكن منهم إلاّ أن يصنّفوا هؤلاء الرّسل في مصافّ العظماء، هذا بالنّسبة إلى المنصفين منهم، أمّا البقيّة فلم يكن منهم إلاّ التّكذيب، وإنّما هي حكمة الله ﴿ لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل ﴾.

ذلك فضل الله على هذا الإنسان الذي جبل على الخطأ والصّواب، وعلى التّمييز بين الخير والشرّ، لم يتركه الله عز وجلّ يخوض محنة الحياة بنفسه، وإنّما تكرّم عليه بعباد مثله اصطفاهم وأوحي إليهم ليكونوا قادة العالم إلى ساحل النّجاة، فمن أراد السّلامة فما عليه إلاّ ، أن يسلك مسلكهم ويهتدي بهديهم لأنّهم بنور الله يستنيرون، ودين الله ينشرون، وإخوانهم يبشرون وينذرون

﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾. (النور ٥٤ ـ العنكبوت ١٨)

فجميع الرّسل إنّما هم حجّة الله على الأرض، يستنير بها كلّ عاقل سليم العقل إذ لا تكليف على من لا سلامة في عقله، ومَنْ مِنَ العالمين يستطيع أن ينكر وجود هذا العدد من الرّسل عبر الزّمان وعبر

المكان خاصّة من بلغه القرآن الكريم الذي قصّ على العالمين من قصصهم الكثير ممّا يصوّر بجلاء المعركة القائمة المستمرّة بين الحقّ والباطل، وبين الفضيلة والرّذيلة ، الفضيلة المتمثلة في الأنبياء والرّسل ومن تبعهم، والرذّيلة المتمثلة فيمن كفر بالله وأعرض عن رسالات هؤلاء وجعل إلهه هواه، وهذه قصّة إبراهيم التي مازلنا نعرض بعضا من ملامحها تثبت لكلّ ذي بصيرة ألاّ عذر بين يدي الله لأنّه قد تبينّ الرّشد من الغيّ، إذ اندثر قوم إبراهيم بعنادهم ولم تتبعهم إلاّ اللّعنة، بينما ظلّ ذكر إبراهيم عطرا لأنّه كان مسلما حنيفا ولم يكن من المشركين، فجعل اللهّ في ذرّيته النبّوة إلى أن كانت الخاتمة مع حفيده من إسماعيل محمد ﷺ ذاك الذي اختار الله معجزته وجعلها معجزة خالدة لا تبلى مع الزّمن لئلاّ تكون حجّة للنّاس على اللهّ، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها.

٤ ـ إنّه الاستعداد إلى دار القرار

وهل يمكن أن تسكت قصّة إبراهيم عليه السّلام في سياقها عن غاية الغايات من حياة الإنسان ألا وهي الحياة الحقّ التي لا فناء بعدها

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(٢٩ العنكبوت ٦٤).

وفي ذلك قال تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(١٦ النّحل ١٢٢).

وقال : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾

(٢٦ الشعراء ٨٢).

وقال : ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء ٨٩).

وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(الانعام ٨٤).

إنّه خليل الرحمن الأوّاب المنيب الـذي صارع الشرّك وقال أسلمت لربّ العالمين، ومع ذلك فإنّه عليه السّلام لا يبرّيء نفسه من الخطأ.

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(١٢ يوسف ٥٣).

بل يتـواضع كلّ التّواضع بين يـدي اللهّ ويثبت أنّه يطمع أن يغفـر اللهّ عزّ وجلّ خطيئته يوم الدّين.

نعم إنّها التّوبة النّصوح إلى الله عزّ وجلّ ، ولا عجب فإنّه كما يقال : سيّئات الأبرار حسنات الفجّار، فشفافية إبراهيم وصفاء سريرته لا تدفعانه إلى الغرور بل تحملانه على اتّهام النّفس بالخطيئة، فيضرع إلى الله أن يغفر الخطيئة يوم الدّين.

إنّه يوم الدّين وما أدراك ما يوم الدّين ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ . لمثل هذا فليعمل العاملون، وليتنافس المتنافسون، وليتب التّائبون ويندموا على ماكسبت الأنفس من الخطايا صغرت أو كبرت.

تلك هي أبرز ثمرات الإقرار بهذا اليوم العظيم، إنابة مطلقة لله عزّ وجلّ ،وحرص متواصل على الامتثال لأوامره والانتهاء عند نواهيه، وبمثل هذه المعاني السّامية تستقيم الحياة على وجه البسيطة لكن لقد غفل النّاس اليوم عن هذا اليوم وكفر به من كفر وقالوا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكهم إلاّ الدّهر، فلم يعرف النّاس في ظلّ هذا الفكر سعادة وإنّما هي الويلات تلو الويلات حيث يطحن القويّ الضّعيف، وتشتعل الحروب المدمّرة لأتفه الأسباب فتأتي على الأخضر واليابس وتفضح أولئك الذين ما يزالون يرفعون بدون حياء لواء الحرّية والمساواة والعدالة، فليعلم النّاس جميعا أنّه بدون إقرار بيوم الدّين لن تكون لا حريّة ولا مساواة ولا عدالة في أيّ ركن من أركان المعمورة وإنما هو الاستعباد والاستغلال والظلم.

وماذا بعد غفران الخطيئة التي لا تتمّ إلاّ بعد التّوبة النّصوح؟ إنّ إبراهيم يرجو من الله ألاّ يخزيه يوم يبعثون، وأن يجعله من ورثة جنّة النّعيم ، فالنّاس كما كانوا صنفين كبيرين في دار العمل فإنّهم صنفان في دار الجزاء، أصحاب الجنّة وأصحاب النّار.

أصحاب النّار هم أولئك الذين كانوا يكفرون بالله عزّ وجلّ كفر شرك أو يكفرون بنعمه وقد ماتوا على تلكم الحال فلا قرار لهم إلاّ عذاب جهنّم خالدين فيها أبدا.

وأصحاب الجنّة، أو ورثة جنّة النّعيم كما جاء على لسان إبراهيم، هم أولئك الذين كانوا على ملّة إبراهيم حنيفا وما كانوا من المشركين ولا من الكافرين بأنعم الله بل كانوا مسلمين لربّ العالمين، يخافون عقابه ، ويرجون ثوابه، لا يغفلون عن طاعته آناء اللّيل وأطراف النّهار، وإذا غلبتهم النّفس الأمّاراة بالسّوء يتوبون من قريب فتراهم ركّعا سجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا عسى أن يكونوا من المرحومين ، وكلّ رجائهم أن يختم الله بالصّالحات أعمالهم. إنّ أمثال هؤلاء جديرون بأن يكونوا بحقّ من ورثة جنّة النّعيم خالدين فيها أبدا، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربّه.

المحور الرابع ـ ابتهالات ابراهيم

الدّعـاء مـخّ العبـادة

قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(٢ البقرة ١٨٦).

لقـد سبق أن علمنا أن إبـراهيم أوّاه حليم منيب وقـد قال ربـّه في حقـّه:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١٦ النحل ١٢٠ ـ ١٢١).

كما أنّنا لمسنـا في المحاور السـّابقة بعضا من دعـواته لله عـزّ وجـلّ عـندمـا أرسى قـواعد البيت العتيـق وثبت لدينـا أنّ الله عـزّ وجـلّ استجاب لدعواته فجعل البلـد آمنا ورزق أهله من الثـّمرات، وبعث فيهم رسـولا منهم يتلـو عليهـم آيـاتـه ويعلـّمهم الكتـاب والحكمـة ويزكـّيهم ، فسلام على إبراهيم إنـّه من عباد الله المحسنين، وكذلك يجزي الله المحسنين.

والكـلّ يعلم أن الـدّعاء مـخّ العبـادة وليست الصّلاة في اللـّغة إلاّ الـدّعاء، فليس على المسلم الـرّباني إلاّ أن يتأسـّى بإبـراهيم عليـه

السّلام فيؤمن بالله عزّ وجلّ ويستجيب لكلّ ما جاء في قرآنه وسنة نبيّه إن أراد أن يستجيب الله لدعائه، وليست ابتهالات إبراهيم عليه السّلام إلاّ دروسا إيمانيّة ساميّة، وجدير بكلّ مسلم أن يحفظها، وأن يعمل بفحواها، وأن يردّدها آناء اللّيل وأطراف النّهار.

١ ـ في جنبات البيت العتيق

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴾ (١٤ إبراهيم ٣٥ ـ ٤١).

إنهّا بلاغة القرآن الكريم التي ليس بعدها بيان تنقل لنا صورة مرئية مسموعة لإبراهيم عليه السّلام وهو في جنبات البيت العتيق، أوّل بيت وضع للناس ليعبد فيه اللهّ بحقّ، وإنّه لجدير أن تسكب فيه العبرات لأنه الموطن الذي لا تردّ فيه الدّعوات.

وها هو إبراهيم بعد أن فرغ من إقامة القواعد من هذا البيت يبتهل إلى الله عزّ وجلّ من أعماق قلبه، قلب طافح باليقين بالله، موقن أن العزّة لله جميعا، أليس هو الّذي أنجاه من النّار ولهيبها فكانت بردا وسلاما.

ماهي النبرّة الأولى ؟ ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ وهل تستيقيم الحياة الإجتماعية في بلد ما إذا حرم من الأمن والطمأنينه، لا واللهّ فما أحوج هذا الحرم الذي اختاره اللهّ أسمى موطن للعبادة أن يكون آمنا فيقبل إليه الحجيج من أطراف المعمورة ليذوقوا حلاوة الأمن ولو مرّة في العمر، فتنطلق ألسنتهم بذكر ذلك حال رجوعهم إلى أوطانهم فيعملون على نشر ذلك الأمن في ربوعهم.

وها هي البشريّة اليوم تعمل كلّ ما في وسعها ليتسببّ الأمن في مواطنهم فتصطنع لذلك من الأجهزة ما لا يخطر على بال، ولكن لا أمن لأنّ الصّلة مقطوعة بين النّاس وبين ربّ العالمين، وإذا بالجرائم والانتحارات لا تقع تحت إحصاء ولا عدّ.

نعم إنّ إبراهيم قد أدرك بما وهبه الله من عقيدة راسخة منذ آلاف السّنين أنّ البلد الذي أقيمت فيه الكعبة الشّريفة لن يكون بلدا يرفع لواء الحضارة الإيمانيّة بحقّ إلاّ إذا كان آمنا، وفعلا يستجيب الله عزّ وجلّ لدعاء خليله فحتّى طيره لا يطارد بل فحتىّ نباته لا يعضد . . أمّا عن حجّاجه فحدّث عن الأمن ولا حرج حتى عندما أشرك النّاس بقيت للبيت حرمته وبقي فيه الأمن، ذاك أنّ العربي على شركه يلتقي بمن يبحث عن الثأر منه في كلّ مكان في جنبات هذا البلد فلا يروعّه بله أن يقتله، ذلك أنّ الله جعل هذا البلد آمنا ، فلتنتبه البشرية اليوم عندما ترسي قواعد العمران وهي في ذلك متفنّنة ألاّ حضارة بحقّ إلاّ إذا كانت البلدان آمنة، ولن تكون آمنة بحقّ إلا إذا استمدّت قوانين التّعامل فيها ممّا جاء في شريعة الإسلام من كليّات في هذا الشّأن ، ومن بينهما أن جبريل ما يزال يوصي النّبيّ بالجار حتى ظنّ أنّه سيورثّه، فأين مثل هذه المعاني ممّا تتألّم البشريّة من ويلاته في حواضر العالم مترامية الأطراف حيث يتجرّع المواطن من مرارة الفزع ما لا يخطر على بال ممّا يتفنّن الأدباء في تصويره عسى أن يظفروا بشيء من الأمن ولكن يبقى هذا الأمن منهم بعيدا، ذلك أنهّم ضلّوا سواء السّبيل.

ثمّ تأتي النّبرة الثانية:

﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ربّ إنّهنّ أضللن كثيرا من النّاس فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم﴾ .

إنّها الأصنام ما تزال تقرّح إبراهيم، لقد قاسى من ويلات عبّادها الكثير، فهو بشرّها خبير، لذلك يسأل ربّه أن يجعل عبادته خالصة لوجهه الكريم وأن يجعل ذلك الوارث منه، ياله من أب كريم لا يفكّر في الخير لنفسه فحسب وإنّما يرجو من الله عزّ وجلّ أن يجعل ذريّته أي عمّار البلد الآمن مؤمنين بالله، مخلصين له الدّين ، بعيدين عمّا يدنّس الفطرة ويشوّه ما ينبثق عنها من سلوك ومن عبادة الأصنام مهما كانت هذه الأصنام.

ثمّ يبّين ماينجرّ عن هذه الأصنام من بلاء، إنّها منبع ضلال كثير من النّاس على وجه البسيطة لقد صدق إبراهيم ــ وهو بذلك خبير ـ إن الأصنام كانت مصدر ضلال أبيه وقومه الذين حاول بكلّ ما في وسعه أن يهديهم الصرّاط المستقيم فلم يكن منهم إلاّ أن عكفوا على تلكم الأصنام ودافعوا عنها بكلّ ما أوتوا من قوّة إلى أن يسر على الأب رغم حنان الأبوة أن يلقي بولده في النّار إرضاء لتلكم الأصنام، نعم إنّها معبودات صمّاء تبلّد عقول عبّادها بل تفقدهم كل سمات الإنسانية، إذ كيف لإنسان مفكّر مدرك يركع ويسجد عند وثن يدرك

أنّه صنعه بيـده أو صنعه غيره بيده، ولكنّه الضّـلال يخرج هذا المعبود في ثوب القداسة التي ليس بعدها قداسة.

والبشريّة المتحضرّة اليوم، وإن أقلعت عن عبادة الأصنام الماديّة فإنهّا خضعت لشكل آخـر من أشكـال الأصنـام من أمثـال مـا جـاءت بـه قـرائح البشريّـة من نظريّـات أثبت الزّمن أنهّا جـوفاء، جـدير بها أن تعود لتتأمّل في دعوة إبراهيـم هذه ﴿واجنبني وبني أن نبعد الأصنام﴾ إذ قد أضلّـت هذه النّظـريّات الحديثة البشريّـة أيّما إضلال نـاهيك أنهّا أبعدتها عن عبادة الذي لا معبود سواه، سبحانه الذي لا إله إلاّ إيّاه.

ولن تكـون البشريّة من إبـراهيم بحقّ رغم ادّعـاء عـدد وافر منهـا بذلك إلاّ إذا تبعته أي وجّهت وجهتها للذي فطر السّموات والأرض حنيفـة لله غير مشركـة بـه، هنـالك يكـون النّـاس جميعـا إبـراهيميين مسلمين لله ربّ العـــالمين في كلّ تصـــوّراتهم، وفي كـلّ عطـــائهم الحضاريّ، وبما أنّ هذا غير وارد اليوم فإنّ البشريّة ليست من إبراهيم في شيء وإنّما هي في زمرة من عصى

﴿ ومن عصـاني فإنّك غفـور رحيم ﴾ . وانظـر إلى رأفـة إبـراهيم الأواه الحليم فإنّه لا يـدعو على هؤلآء بالويل والثّبـور بل يكل أمرهم إلى الواحـد الدّيان عسى أن يلهمهم مـراشد أمورهم لأنّه هـو الغفور الرّحيم.

فيـالهما من نبرتين إيمانيتين تنبني عليهما الحضـارة الحقّ فـلا حيـاة في العمران إلاّ بالأمن. ولا أمن إلاّ بالإنابة للّذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه المرجع والمصير.

ثم تأتي النّبرة الثّالثة :

﴿ ربّنا إنيّ أسكنت من ذرّيتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم، ربنّا ليقيمـوا الصّلاة، فاجعل أفئـدة من النّاس تهوي إليهم، وارزقهم من الثّمرات لعلّهم يشكرون ﴾.

إنّ الإيمان الـرّاسخ هـو الذي دفع إبـراهيم إلى إسكـان أهلـه بهذه الرّبوع بمكّة المكرّمة، إنهّا طاعة الله، إنّه الاستسلام لأمر الله.

ويلاحظ إبراهيم أنّ حياة هذا الوادي لا تقوم على الفلح لأنّه موطن غير ذي زرع لكنّ الله تعـالى اختـاره من بين جميع مـافي الأرض من أماكن وجعله مـوطنا لبيته المحرّم، وفي هذا من الدّلالـة مافيه على أن الفضل بيد الله يهبه لمن يشاء لأنّه وحده يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء.

إنّ مقاييس البشر المادّيّة تقول عنـدما تطوف في جبال مكّة الجرداء، لا سبيل إلاّ إلى حياة نكـدة في مثل هذه الـربّوع، خاصّـة إذا قورنت بأرض فلسطين، أو ببـلاد مـابين النّهـرين، أو بضفـاف النّيل تلكم الأماكن التى عرفها إبراهيم، وتبّـين ما فيها من خصب ورخاء.

إنّ إبراهيم لم يخطر بباله ولو للحظة أن يعترض على الإرادة الالهيّة،

وفي ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر وإنما لم يذكر إلا فضل الله عليه وعلى ذريّته حيث جعل الله إقامتهم عند بيت الله الحرام. وأيّ نعمة تعادل هذه النّعمة، إنهّم سيكونون سدنة البيت وحفّاظه، وكما قال عبد المطلب فيما بعد وهو على الشرّك : (للبيت ربّ يحميه) . لذلك لم يكن من إبراهيم إلاّ أن استحضر الغرض من هذه الإقامة ﴿ربّنا ليقيموا الصّلاة﴾، وأيّ غاية في الحياة أسمى من هذه (إقامة الصّلاة) بمعنى التّوجّه الكامل للواحد الدّيّان بكل أصناف العبادة.

فالموطن ــ وإن كان غير ذي زرع ـ فإنّه تحّف به بركات القداسة التى لا تعادلها في الحياة بركات (بيتك)، إنّ هذه الإقامة هل كانت عند بيت عظيم من عظماء الدّنيا معرّض بأن يزول أو تزول عنه النّعمة لأتفه الأسباب؟ أم هل كانت عند أمّة متأصلة في العراقة؟ وكلّ عراقة مهما طالت مآلها الفناء، كلاّ إنهّا إقامة حيث لا حياة، لا لنبات، ولا لحيوان ولا لأنسان، سبحان الله، إنهّا إقامة كل المؤشرات الماديّة فيها تدلّ على هلاك الزّوجة والولد، ولكنّه إبراهيم على يقين من أنّ ربّه ما كان ليفرّط فيه، ولا في هذا الفرع من ذريّته من إسماعيل.

إنّها إقامة عند بيت الله، عند البيت الذي اختاره الله عزّ وجلّ ليعبد فيه بحق، عند الكعبة الشّريفة التي شاءت رحمة اللهّ أن تفضّلها

تفضيلا، عند المسجد الحرام الذي يحيط بجنبات هذه الكعبة الشّريفة، . في ربوع مكّة المكّرمة بلد الله الحرام، إنّها القداسة الإلهيّة ترفل في هذا المحيط بين الأرض والسّماء، ينهل منها بكل يسر كلّ من آمن بالله ربّا، فيطوف ويعكف، ويصلّي، ويدعو، ويركع، ويسجد وهو على يقين أنّ الحركة التعبّديّة هناك تعادل مائة ألف حركة تعبّديّة في غير هذا المكان من جميع أطراف العالم.

نعم صدق إبراهيم ، لم يسكن هذه الذرّيّة لتفلح الأرض فتغنم، أو لتتاجر فتربح، أو لترعى السّوائم فتكسب، أو لتصنّع المكان فتثري، لا إنّ كلّ ذلك كان ثانوياً في روع إبراهيم، إنه أسكنهم هناك ليقيموا الصّلاة، وهو يعلم أن العبادة الخالصة لله تعالى هي سرّ النّجاح الحقيقيّ في الدّنيا والآخرة، لأنّ كلّ الخيرات الماديّة تفنى وتفارق صاحبها حال فراق الدّنيا سوى ما قدّمت يداه من عبادة مخلصة وعلى رأسها الصّلاة والتّضرّع لله.

ألم يأن للبشريّة اليوم أن تنتبه إلى هذه الحقيقة الخالدة؟ وهي أن سرّ الازدهار العمرانيّ إنّما يكمن في ذوبان سكّان البلاد في العبادة لله عزّ وجلّ فيسوق الله إليها أرزاقها رغدا من كلّ مكان بل يفجّر تلك الأرض بخيرات لم تكن تخطر على بال إلاّ أنّ حضارة اليوم غفلت عن هذه المعاني، ولم تفكّر إلاّ في الثّراء الماديّ فيسّر لها الله من اكتشاف

النّواميس التي تزيدها ثراء على ثراء ولكن أين السّعادة الحقّ، إنّه النّكد الذي ليس بعده نكد، ذلك أنّ المعادلة مختلّة لأنّ الإنسان ليس مجردّ طين بل الجانب الأسمى فيه هو الآخر جانب الرّوح.

وعلى هذا الأساس فعلا درج العمران في الحضارة الإسلامية النّابضة حيث إنّك ترى أنّ بيت الله هو قلب كلّ عمران، ومنه ينطلق كل خير، وإليه يؤوب النّاس في كل حين لماذا ؟ ﴿ ليقيموا الصّلاة ﴾ أي ليبقوا على صلة وثيقة دائمة بربّ العالمين فينعكس ذلك على حياتهم فينتهون عن الفحشاء والمنكر ولا يأتون في نواديهم ومدارسهم ومتاجرهم ومصانعهم إلاّ بما يرضي الربّ الذي يقفون بين يديه خمس مرّات في اليوم مصلّين منيين لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غنيّ وفقير بل كلّهم سواسية كأسنان المشط، بل كلّهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضهم بعضا، بل كلّهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى.

نعم صدق الله حيث يقول إنّ إبراهيم كان أمّة، إذا كلّ من اقتدى به واهتدى لن يكون نصيبه إلاّ الفلاح في الدّارين دار العمل ودار الجزاء.

ثم بعد أن امتثل إبراهيم عن وعي ويقين لأمر الله أسكن من الذّرّية عند بيت الله المحرّم ليقيموا الصّلاة بماذا يدعو الله لهم ؟

﴿ فاجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم ﴾.

سبحانك ياربّ ما أسمى هذا الطّلب إنّه يرجو من الله أن يجعل هذه الذّريّة محبوبة عند النّاس، ولن يكون ذلك إلاّ إذا كانت أواصر الرّابطة روحيّة إيمانيّة.

وفعلا كان الأذان في النّاس بالحجّ، واستجاب الله للدّعاء، وأقبل النّاس على تلكم الرّبوع من كلّ فج عميق، لا يشدّهم إليها طمع لا في الزّرع ولا في الضّرع، ولا فيما في باطن الأرض، ولا جشع في الغنم، . وإنّما يحركهم أمر واحد هو هوى في الفؤاد مع رغبة في العطاء لا في الأخذ.

ومن شدّة الشّوق لتلكم الرّبوع يعلم الإنسان أن اللّسان يعجز عن التّعبير عمّا يجيش في الفؤاد، وكذا يكبو القلم إذا سعى أن يعبّر عمّا في الجنان من لوعة الهوى والشّوق، إنها دعوة إبراهيم ظلّت ترفرف على ذلك المكان حتى في أحلك ظروفه عندما عبثت به الوثنيّة وسيطر عليه الشّرك.

وفعلا لقد كان رجاء إبراهيم فريدا من نوعه إذ قد ألهمه ربّه فأحب أن يكون هذا المكان ملتقى عالمياً لا لجنس دون جنس، أو لجماعة دون جماعة، وإنّما للنّاس جميعا ﴿ من النّاس ﴾ ، ولم يرده لقاء ماديّاً شكلياً تتعانق فيه الأجساد وتتنافر القلوب، بل أراده ملتقى روحياً تتعانق فيه القلوب لأنّه نابع عن هوى في الفؤاد، لينعكس ذلك على

الأجساد فتتعانق بحقّ بما جعل الله فيها من عقول، فلا تفكّر إلاّ في ما يعود بالنّفع على البلاد والعباد.

ما أبعد نظرة إبراهيم عليه السّلام حيث رجا من الله عزّ وجلّ أن يكون مسكن ذريته منطلق كلّ حضارة ومرجعها، إذ ما عسى أن تفعل هذه الأفئدة العاشقة عندما تلتقي هناك فتبعث الأنس في أهل البلاد، إنّها تقتبس منهم ما تفتقده من معاني السموّ فتنشره في ربوعها عندما ترجع، وتمكّنهم من جميع خبراتها فتسكبها هناك، وإذا بذريّة إبراهيم ـ وهم عند بيت الله المحّرم بواد غير ذي زرع ـ يتعايشون بدون عناء مع البشريّة الموزّعة في أطراف الأرض، وذلك في كلّ لحظة من لحظات حياتهم إذ لم يربط إبراهيم ذلك بزمن محدّد، وكذا كانت العمرة في كل زمان إلى جانب الحجّ المحدّد بالزّمان.

وفعلا فقد هوت الأفئدة إلى تلكم الذّرية من كل أطراف المعمورة حيث يتمازج العربيّ مع الصّيني والياباني والأوروبي والإفريقيّ والأمريكيّ والأستراليّ ربّهم واحد، وقبلتهم واحدة، ودينهم واحد ﴿أسلمت لربّ العالمين﴾.

ثّم بعد ذلك لم يغفل إبراهيم عن المعاش إذ لا تستقيم الحياة الرّوحية إلاّ بتلبية رغبات الجسد لأنّ الإسلام يراعي هذه المعادلة البشريّة، فللرّوح نصيب، وللجسد نصيب، وللعقل نصيب، ذاك هو الإنسان المسلم.

﴿ وارزقهم من الثّمرات ﴾

يـاله من أب حليم، يطيع ويـدعو، وهـو يعلم أن سرّ الاستجابـة للدّعاء يكمن في الطّـاعة الخالصة، وكيف تستقيم حياة الـذّريّة وحياة ضيـوف الرحمن؟ إنهّم في حـاجـة إلى طعـام، وهو يعلم أنّ الشّـراب مضمـون، تلك بـركـات إسماعيـل الـذي فجّـر الله من تحت قـدميـه الصّغيرتين الماء الزلاّل من بطن جبل أخشب هو أولى بأن يدمي قدميه من أن ينبع له بما في بطنه من ماء زلال.

وهل يكفي الماء بدون طعام؟ كلاّ، لـذلك يعلّم إبراهيم البشريّة أن تطلب الرّزق من الله ـ والمطالب المادّيّة مشروعة في الإسلام ـ ولم يحدّد إبـراهيم نـوعـا من أنـواع الـرّزق، وإنّما كـان الطّلـب مطلقـا (من الثّمرات)، وإن غلب الثّمر على حمل الشّجر، فإنه بتجاوزه إلى الدّلالة على فائدة كلّ شيء مادّيّ وغير مادّيّ إذ يقـال خصّني فلان بثمرة قلبه أي بمودّته، وفي حديث المبايعة : ﴿فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه﴾.

مرّة أخرى يتجليّ بعد نظر إبراهيم عليه السّلام فالثّمرات في النّهاية تشمل كلّ عطـاء البشريّة في أطـراف العـالم، فهو يـرجو من الله عـزّ وجلّ أن يرزق هذه الذّريّة من كلّ هذه الثّمرات على جميع أصنافها ، لأنّ الإنسان في حاجة إلى كلّ تلكم الثّمرات مادّيّا ومعنويّا.

وفعلا قد انصبّت تلكم الثّمرات في ربوع بيت الله الحرام، وما تزال

تنصبّ بفضل الله وببركات دعوات إبراهيم عليه السّلام، فخيرات العالم اليوم كلّها منصبّة هناك، ولا أراني مضطرّا بأن أعدّد، فياليت هذه البقيّة من الذّريّة تستفيق، ويا ليت أصحاب هذه الثّمرات يستفيقون ليتعانقوا جميعا وينقذوا العالم ممّا يتخبّط فيه من ويلات ناجمة عن ماذا؟

ناجمة عن الغفلة عن الغاية التي حدّدها إبراهيم إذ جعل دعواته مشروطة بأمرين هما إقامة الصّلاة، و ﴿ لعلّهم يشكرون ﴾.

فالقاعدة حينئذ واضحة وضوح الشّمس إذا كانت الصّلاة وكان الشّكر من أهل البلاد ومن الوافدين كان الفضل العميم، وقد تحقق ذلك زمن إبراهيم وزمن محمّد ﷺ ومن استّن بسنّته من الرّعيل الأوّل من المسلمين فكانت مكّة المكرّمة وما حولها من عالم إسلامي منطلق كلّ إشعاع حضاريّ حتى قالوا كلّ الطرق تؤدي إلى مكّة بعد أن كانوا يقولون إلى روما.

وعندما أدبر الشّكر وانعدمت الصّلاة أو تكاد بقيت الثّمرات، وأقبل أصحاب الأفئدة الهاوية لكن أين الإشعاع ؟ لكلّ قارىء أن يجيب بنفسه.

وتأتي النّبرة الأخيرة في هذا السّياق طافحة بعديد من الدّعوات الصّالحات بعد عديد من الإقرارات.

الإقرار الأولّ : ﴿ ربنا إنّك تعلم ما تخفى وما نعلن وما يخفي على الله مَن شيء في الأرض ولا في السماء ﴾.

سبحان الذي يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصّدور.

نعم إنّ مثل هذا الاعتقاد هو الذي يضمن وحده سلامة القول وسلامة العمل، ولن يكون للبشريّة رقيّ بحقّ إلاّ إذا آمن كلّ عناصرها أن سرّهم عند الله مكشوف، وأنهّم لن ينفلت واحد منهم من يد العدالة الإلهيّة التي لا يغفل ميزانها عن مقدار ذرّة أو مقدار حبّة من خردل، ولن يتأتّى للإنسان أن يجور مع ربه ومع نفسه ومع بني جنسه إلاّ عندما يغفل عن هذه الحقيقة، وذاك هو الغالب على عمّار العالم، وهم على أبواب القرن الواحد والعشرين ميلاديّا، كما يقولون، وفي مطلع العقد الثاني من القرن الخامس عشر للهجرة.

الإقرار الثاني : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربيّ لسميع الدّعاء ﴾.

إنّه الحديث بالنّعمة والاعتراف بفضل الله، ذاك أنّه لم يحرمه من الذريّة رغم تقدم السّنّ، والإنسان يدرك حقيقة النّعمة بعد طول الحرمان أكثر ممّا لو رزق الذّرية من بداية الحياة.

ويعترف إبراهيم بين يدي الله أنّ هذه الذريّة كغيرها من النّعم هبة

من الله، فالواجب أن تقابل بالحمد والشّكر، وذلك بتسخيرها في طاعة الله، وهنيئا لإبراهيم إذ جعل الله كلاّ من هذين الولدين نبياّ.

كما يعلّم إبراهيم البشريّة ألاّ تتوقّف عن الدّعاء لله وألاّ تقنط من رحماته وذلك بالتّأكد على أنّ اللهّ سميع الدّعاء.

الدّعوات :

- ﴿ ربّ اجعلني مقيم الصّلاة ومن ذرّيّتي ﴾.

إنّه الإلحاح على هذه العبادة ــ الصّلاة - لأنّ إبراهيم يعلم أنهّا محور العبادات جميعا لأنهّا تواكب الإنسان في كلّ حين، خاصة بالمسلك الذي حدّده الإسلام مع محمّد عليه السّلام، نعم إنهّا الصّلة المستمرّة بالله عزّ وجلّ.

ولا يستأثر بإقامة الصّلاة لنفسه، وإنّما يرجو أن تكون هذه الإقامة سمة بارزة في ذرّيّته ليكونوا أهلا بحقّ لأنعم الله حيث أسكنهم عند بيته الحرام ومعلوم لدى كلّ مسلم أنّ إقامة الصّلاة لا تعني مجردّ الحركات، وإنّما المقصود بها أداؤها بكلّ مستلزماتها، من طهارة ماديّة ومعنويّة، وخشوع على أحسن الوجوه، وبذلك يكون لها الأثر الطّيّب في الحياة، وترفع في الآخرة الدّرجات.

- ﴿ ربّنا وتقبّل دعاء ﴾.

ياله من نبي كريم يسأل ربّه أن يجعل دعاءه مقبولا إذ ما قيمة

الدّعاء إذا كان مردودا، وما أكثر الذين يلهجون بالدّعاء، وما أقلّ عدد الذين يستجاب لهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (٣٤ سبأ ١٣).

إنّه حسن القبول يجعل إبراهيم دائما بين الخوف والرّجاء، الخوف من أن تردّ دعوته فيكون والعياذ بالله من الخاسرين، والرّجاء في أن يتقبّل الله دعواته فيكون من الفائزين في الدّارين دار العمل ودار الجزاء.

﴿ ربّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾.

وبعد طلب قبول الدّعاء يسأل الله المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين متى؟ نعم في أصعب الأحوال يوم يقوم الحساب، وقد علمنا من قبل ما للايمان بهذا اليوم من أثر إيجابيّ في حياة النّاس، وما للكفر به من أثر سلبيّ في حياتهم.

ذلك هو إبراهيم في نبراته الدعائيّة الأربع في هذا السّياق القرآنيّ الكريم من سورة إبراهيم جاءت شاملة لأمور الدّين والدّنيا والآخرة.

من أمور الدّين : واجنبني وبنيّ أن نبعد الأصنام (عقيدة) اجعلني مقيم الصّلاة ومن ذريّتي (عبادة) ربّنا ليقيموا الصلاة (عبادة) تقبّل دعاء (عبادة

من أمور الدّنيا : اجعل هذا البلد آمنا (سرّ العمران) اجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم (عمران) وارزقهم من الثّمرات (عمران).

من أمور الآخرة : اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب. وليس للمسلم إلاّ أن يتضرّع إلى الله عزّ وجل : ﴿ربّنا أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ﴾.

٢ ـ إقرارات إبراهيم ودعواته

هذا ما جاء في سورة إبراهيم من دعوات إبراهيم ، وقد وردت له دعوات أخرى في سورة الشّعراء حيث يقول تعالى :

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢٦ الشعراء ٧٥ ـ ٨٩).

تأتي هذه الدّعوات الصّالحات بعد أن جاهر قومه بعداوته الصّريحة لجميع معبوداتهم ﴿ فإنّهم عدوّ لى إلاّ ربّ العالمين ﴾ ويستثني بكلّ وضوح معبوده الحقّ ذاكرا بعض صفاته.

وفي ذلك تتجلّى عناصر العقيدة الصّحيحة :

توحيد الله ربّ العالمين : ﴿ إلاّ ربّ العالمين ﴾ بالعبادة لأنّه هو وحده الأهل بأن يعبد لأنّه ربّ العالمين وخالقها والمتصرّف في ما فيها ومن فيها.

الإقرار بتصريفه للبشر : في أدقّ شؤون حياتهم على الأرض :

﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ إنّه الخالق الذي لا تلتمس الهداية إلاّ من عنده فيمنّ بها على من يشاء ويحرم منها من يشاء.

﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ وهل تستقيم حياة الإنسان إن هو أمسك رزقه وجعل الماء غورا، إنّه العناء ثمّ الفناء.

﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ أليس الإنسان الذي يتكبّر ويعاند معرّضا للمصائب؟ ومن بينها مصيبة المرض بأن يختلّ توازن بنيته الجسديّة أو العقليّة أو الرّوحيّة. فمن عند من يستدرّ الشفاء! إنّه لا يستدر إلاّ من الله لأنّه هو الذي بيده الشّفاء،

﴿ والذي يميتني ثمّ يحيين ﴾ قتل الإنسان ما أكفره! كيف تحدّثه نفسه بالتكبّر على ربّه، وهو يوقن أنّ حياته بين أجلين لا طائل له عليهما بل لا يعرف حتى موعدهما، إنّهما الولادة والموت.

ذاك هو ربّ إبراهيم الذي أراد أن يهدي قومه إليه، إنّه ربّ العالمين يطعم ويسقي ويشفي ويميت ويحيي. ألم يأن لهؤلاء أن تخشع

قلوبهم لذكره ذاك ما أراد أن يثيره في هـولاء القوم، وقد جاء الكلام بصيغـة المفرد المتكلّـم، وإن كـان الأمر عـامـاً ، ذاك ليذكّـر هـؤلاء المعانـدين أنّـه لا حـول ولا قوة لهم إلاّ بالله، بينما معبـوداتهم لا تقدر حتّـى لنفسها على شيء.

الإيمان بالبعث والحساب بعد الموت وبفضل الله وتقصير العبد :

﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدّين ﴾

يالها من عقيـدة زكيّة ينادي إليهـا إبراهيم تربط المخلـوق بالخالق، فتجعلـه يوحّـده في ذاتـه وصفـاته وأفعـالـه، ويدرك أنّـه إليـه المرجع والمصير، نعم إنّ هذا المخلـوق وإن كان إبراهيم الخليل فإنّـه مـوسوم بسمة الخطإ لأنّـــه مخلوق تنتابه لحظـات ضعف فيحيد ويخطيء، فمن يغفـر الخطيئة ؟ إنّـــه الغفور الرّحيـــم الذي يتقبّـــل من عباده الـذين يتوبون من قريب، ذلـك هو فضل الله رغم تقصير المخلوق وغفلته، المهـّم في عـدم الإصرار، والإنابة إلى الله، والإقـرار بالخطيئـة والنـّدم عليها، وإبدالها بالحسنة لأنّ الحسنات يذهبن السـّيـّئات.

بعد هذا البيان الإيمانيّ تنبع ستّ دعـوات من صميم الفؤاد خالصة لله عـزّ وجـلّ يستدرّ فيها إبـراهيم رحمات البـرّ الرّحيم وهو على يقين أنّـه يتوجّـه إلى السّـميع العليم ﴿ إنّ ربي لسميع الدّعاء﴾.

١ ــ ﴿ ربّ هب لي حكما ﴾: ليس الحكـم إلاّ العلم والتفقّـه أو

الحكمة وكلاهما يدلاّن على حسن اختيار الدّاعي وكيف لا يحسن إبراهيم الاختيار.

نعم إنّ الإنسان في أشدّ الحاجة إلى العلم والتفقّه ليتمكّن من أن يشقّ حياته على بيّنة خالصة إذا كان هذا العلم وهذا التّفقه ربّانيين نابعين من صميم العقيدة فإنّ الحياة بفضلهما تكون حياة إيمانيّة بحقّ مفضية إلى مرضاة رب العالمين ، وإلى الفوز بجنّات النّعيم.

نعم إنّ الإنسان كذلك في أشدّ الحاجة إلى الحكمة

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢ البقرة ٢٦٩).

ذلك أنّه بهذه الحكمة يستطيع أن يميّز بين القيم الصّحيحة، وبين ما تزخرفه عقول التّائهين من البشر من زيف يبدو كأنّه غاية في الصّلاح وهو غاية في الفساد والطّلاح، والحكيم كما لا يخفى هو الذي ينزل جميع الأمور منازلها في إطار منهج ربّانيّ يستمدّ موازينه من وحي الله قبل كلّ شيء.

٢ ـ ﴿ وألحقني بالصّالحين ﴾ : نعم إنّ إبراهيم ليخشى رغم ما وهبه الله من قوّة الإيمان أن يجرفه تيّار البيئة التي ظلّ ساعيا إلى تحويلها إلى منهج الصّلاح ، وفي ذلك عبرة لجميع الدّعلة، يجب ألاّ يطمئنّوا إلى ما وصلوا إليه، وإنّما يجب أن يتّهموا أنفسهم بالتّقصير مهما بذلوا من جهد لأنّ ذلك قليل في جنب الله مهما كثر، كذلك لا

يجب ان يتصورّوا أنّهم أدركوا القمّة بالمقارنة مع ما يرون أمامهم من زيف لدى الآخرين.

لذلك لا يطمئنّ إبراهيم لنفسه طرفة عين، ويسأل الله تعالى ضمنياً أن يجعله من الصّالحين لأنّه لا يمكن أن يلحق بالصّالحين إلاّ إذا كان صالحا، والصّلاح إنّما هو الاستقامة والسّلامة من العيب، وذلك في إطار المنهج الرّبانيّ الذي لا توزن الأعمال الحقّ إلاّ به.

وما أحوج الأمّة إلى الصّلاح والصّالحين إذ بوجودهم تستنير الحياة، وتأمّل في فضل الله كيف يرسل الأنبياء والرّسل، وهم صفوة الصّالحين، ليخرجوا العالمين من الظّلمات إلى النّور.

٣ ـ ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾

إنّها محبة الخير للعالمين، إذ لم يكن إبراهيم أنانيّا وإنّما يرجو من الله أن يكون له امتداد عبر الزّمن في الآخرين، ويوضّح هذا المعنى ما عرضنا فيما سبق من دعوة إبراهيم أن يبعث رسولا في الآخرين، والأساس في الرّسالة أو الدّعوة الإيمانيّة في أنهّما تقومان على الصّدق، ولم يكن جميع الأنبياء والرّسل إلا رموزا للصّدق، ولتعليم البشريّة الصّدق الخالص مهما تصوّر الإنسان صعوبة ما ينجرّ عنه من نتائج.

لقد صدق إبراهيم قومه، ولم يخن الأمانة حتّى وهو يبنى له المنجنيق ويلقى فى النّار، ولقد صدق محمد ﷺ قومه حتى عندما تآمروا على اغتياله، فلم يكن من الله عزّ وجلّ إلاّ أن أنجى خليله، وحفظ المصطفى، وجعل من بين أيدي المتآمرين سداً ومن خلفهم سدّاً فأغشاهم فهو لا يبصرون، وكذلك كلّ الرّسل والأنبياء.

المهمّ أن يدرك النّاس جميعا ألاّ نجاة بحقّ إلاّ في الصّدق مع الله، ومع النّفس، ومع الآخرين، وإنّ هذا الصّدق لمطلب عزيز في عالم صار يعتبر ألاّسلامة إلاّ في الزّيف.

٤ ـ ﴿ واجعلني من ورثة جنّة النعيم ﴾ :

لقد سبق أنّ بيّنّا ما للتّصديق باليوم الآخر من أثر إيجابيّ في سلوك المسلمين، وها هو إبراهيم يسأل الله أن يورّثه جنّة النّعيم، وأيّ قرار أحسن من هذا القرار، وليعلمنّ الإنسان كما علم إبراهيم من قبل أنّ هذا الطّلب إنّما يترتّب على الإيمان الرّاسخ والعمل الصّالح في هذه الحياة الدّنيا.

٥ ـ ﴿ واغفر لأبي إنّه كان من الضّالين ﴾:

لم يكن هذا الاستغفار إلاّ عن موعدة وعدها إيّاه

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (٩ التوبة ١١٤).

وبهذا تثبت الحنيفيّة السّمحة أن الرّابطة الحقّ إنّما هي رابطة

العقيدة، فلا استغفار لأهل الضّلال وإن كانوا أقرب النّاس رحما للمستغفر، إنّها البراءة (تبرّأ منه) ، وما أسلمه منهج ؟ لو عمل النّاس على تطبيقه فلا يتولّون إلاّ أولياء الله كما يتبيّن لهم في الظّاهر، ويتبرّؤون ممّن يجاهرون بالشّرك أو الإلحاد أو المعاصي.

وليست الولاية إلاّ أن تحبّ في الله ولله، وليست البراءةإلاّ أن تبغض في الله ولله.

وهذا إبراهيم الأوّاه الحليم يلقّن المسلمين درسا إيمانيّاً راقيا فيتبرأ من أبيه لمّا تيقّن أنّه عدّو لله فتتوقّف المودّة وينقطع الاستغفار ولو كان هذا الشّخص الوالد.

يالها من درجة إيمانية عالية، إنّه يسحب الاستغفار الذي جاءت روايته في الدّعاء في هذا السّياق إخلاصا لله تعالى.

وفعلا لو تعامل النّاس بصدق بمبدإ الولاية والبراءة لاستقامت لهم الحياة ولأذعن العصاة للجماعة المسلمة التي لا تريد من وراء هذه البراءة إلاّ ردع هؤلاء عن غيّهم حتى ينتبهوا عندما يحرمون من حقوقهم في المجتمع فيندموا على ما ارتبكوا من جرائم ويتوبوا إلى الله ربّ العالمين، فيرجعوا إلى المحيط الإسلامي ليحتضنهم من جديد، ويتعايشوا فيه بأمن وسلام يؤدّون واجباتهم، وينعمون بما لهم من حقوق.

ومن أراد أن يتبيّـين قيمـة أثر البراءة في النّـفوس فليرجع إلى قصّـة الثّـلاثة الذين خلّفوا في غزوة تبـوك، كعب بن مالك وهلال بن أميـة ومرارة بن الرّبيع أولئك الذين صدقوا رسول الله في أنهم تخلفوا بدون عذر فتبرأ الـرّسول والمسلمـون منهم وعزلوهـم عن المجتمع الإيمانـي إلى أن تاب الله عليهم

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(٩التوبة ١١٨).

٦ ـ ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾.

إنّ إبراهيم رغم ما قدّم من الأعمال الصـالحة فإنّـه لا يتألّى على الله أي لا يتصـورّ أنّـه يقينا من الفائزين لذلك يطلب من اللهّ ألاّ يخزيـه يوم البعث، وأخزاه بمعنى أهانة وفضحـه وأخجله، أيّ هوان أفضع من هوان يوم البعث! هذا اليوم الذي بيّـن إبراهيم بعضا ممّا فيه من هول إذ كلّ ما ينفع في الـدّنيا لا يمكن أن ينفع هنـاك مادامت كلّ نفس بما كسبت رهينة، ولا ينفع إلاّ من أتى الله بقلب سليم، وسـلامة القلب

تتمثّل في إخلاصه لله في جميع ما قـدّم من اعتقاد وقول وعمل، وما أحوج النّاس في كـلّ زمان ومكـان إلى سلامة القلب، ذلك أنه عليه مدار جميع الأعمال إذ إنما الأعمال بـالنيات ولكلّ امرئ مـا نوى، وإذا سلمت السرائر تصلح الأعمال فيكـون الإنتفـاع بها في هـذه الحيـاة الدّنيا، ويكون النّـفع الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

تلك هي ستّ دعـوات لم تشمل في هـذا المرّة أمـرا من أمـور المادّة بل تمحّضت لما تحتـاج إليـه الـرّوح لتكـون في درجة عـاليـة في الشّـفافية والصفّـاء فيما يؤتى الإنسان من الحكمة يستطيع بها أن يجتاز محنة الحياة بسـلام فيشتاق إلى الارتقـاء إلى مصافّ الصّـالحين ، فيعمل بعملهم صدقـا وإخلاصـا لا يريـد أن تكون حكـرا عليه ويـرجو أن تشيع في الآخرين، وبالتّالي يمكن أن يـرتقي بفضل الله إلى درجات ورثة جنّـة النّـعيم، ومن هـذه سماته لا يمكن أن يضيع الله إيمانه ولن يخزيـه يوم يخزي أولئك الـذي كابـروا وعانـدوا وكـانوا في بـراءة المسلمين، بل يجعله الله من أوليائه الذين

﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

ذلك هـو إبـراهيم عليـه السّـلام لقـد كـان صـادقـا مع الله في جميع تحرّكـاته، نعم لقد صدق حيث قال :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ (١٩ مريم ٤٨).

إنّه اعتزل قومه وكان شاكرا لأنعم الله فلم يكن ليشقى بتضرّعه لله، بل ارتقى إلى أرفع درجات السّعادة ، إنّه ذهب إلى ربّه فهداه ووهب له من الصّالحين وبشّره بغلام حليم، إنّه بتحرّكه هذا علّم البشريّة دروسا راقية في التّوكّل، أليس هو القائل ؟

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٦٠ الممتحنة ٤).

والتّوكّل كما لا يخفى يتمثّل في أن يأتي الإنسان الأسباب المشروعة ثمّ مع ذلك وبعد ذلك يفوّض الأمر إلى الله، وكذا فعل إبراهيم لم يركن إلى الظّلم والظّالمين إلى أن ثارت ثائرة الظّلم وتصدّت له فصمد إلى آخر لحظة دون أن يتزحزح عن المبدإ قيد أنملة فأيّده ربه بنصر منه، وكتب لدعوته الرّسوخ في موطن آخر عند بيته المحرّم، وهنالك كان التّضرّع، وكان الدّعاء ، وكان ترسيخ جميع مبادىء العقيدة السّمحة، تلكم المبادىء التي أحييت بعد آلاف السّنين مع دعوة خاتم المرسلين ﷺ ، ومع كلّ ذلك استمرّ إبراهيم يسأل الله ألاّ يجعله فتنة للذين كفروا وأن يغفر له

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(٦٠ الممتحنة ٥)

وكذا استمـــرّ خلفه في الـدّعاء، وهم على يقين أنّ البـاطل مهما صال لابد أن يختفي

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(١٧ الاسراء ٨١)

ألاّ يجعلهم فتنة للذين كفروا وأن يغفر لهم الذّنوب، ذاك أنّ الإنسان مهما اجتهد فإنّـه خطّـاء وخير الخطّـائين التّـوّابون، ولن تنفع التّـوبة إلاّ إذا تقبّـل الله الدّعـاء، وتجاوز عن السّـيّـئات لأنّـه هو العزيز أي القادر على الفعل الحكيم فيما يمضي من تدبير.

فسلام ثّـم سلاّم ثم سلام على إبراهيم إنّـه من عباد الله المحسنين.

الخاتمة :

لقد حرصنا في هذه العجالة ـ يا طالب الاستقامة ـ على أن نتعايش في رحاب خليل الرحمن فقبسنا من تجربته الإيمانية الصادقة بعض الأنوار السّنيّة عسى أن نستنير بها في هذه الحياة الدّنيا، وعند مماتنا، وفي قبورنا، وفي محشرنا يوم تبيضّ وجوه، وتسودّ وجوه.

نعم إنّه أسوة حسنة بحقّ لأنّه بشر رسول جمع خصال الخير فكان أقرب ما يكون إلى الكمال وكيف لا يكون هكذا وقد شهد أنّ ربّه كان به حفيّا، وقال أسلمت لربّ العالمين طالما أمره ربّه بذلك.

ولقد تمثّل هذا الاستسلام لله صريحا في مرحلة الرّفض حيث تصدّى لأبيه وقومه يثبت لهم بكلّ ما أوتي من قوّة أنّهم في ضلال مبين، ولم يثنه عن عزمه إصرارهم على عبادة الأصنام، وتحوّل من القول إلى الفعل إلى أن بلغ القمّة في التّضحية وكانت النّار عليه بردا وسلاما.

وكانت الهجرة، وييسّر الله مرحلة الإيجاب وإذا به في رحاب البيت العتيق الّذي أرسى قواعده مع ولده إسماعيل، تنطلق على يديه الحنيفيّة السّمحة، ويسأل أن تكون في ذريته فكانت ويسأل الله أن يبعث رسولا في هذه الذّريّة فكان، وإذا بنور الإسلام ينبثق من

جديد مع حفيده سيّدنا محمد ﷺ ، ويشاء الله أن تكون الرّسالة التي تقوم عليها القيامة.

ذاك هو سرّ الإخلاص لله تعالى، وذاك هو شأن المخلصين ، لا يتوقّفون عن السّعي لإعلاء كلمة الله ، ولا عن التّضرّع إلى الواحد الدّيّان، أن يغفر الذّنوب، وأن يختم بالصّالحات الأعمال، وأن يصلح أمر الدّين والدّنيا والآخرة.

اللّهم صلّ وسلّم على خليلك إبراهيم أفضل صلاة وأزكى تسليم برحكمتك يا أرحم الرّاحمين.

وهذه أيّها الأخ الكريم بعض الدّروس قبل أن نختم. نوردها بين يديك عسى أن نكون من الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه :

١ ـ العقيدة الرّاسخة نية وقول وعمل.

٢ ـ استحضار عظمة الله عزّ وجلّ من خلال أسمائه الحسنى وما عظم وما دقّ من مخلوقاته.

٣ ـ الرّفض المطلق لأيّ معبود سوى الله مهما كلّف ذلك من ثمن.

٤ ـ الاستسلام المطلق لله والتّوكّل عليه.

٥ ـ الحرص على التحلّي بأوامر الإسلام والتخلّي عن نواهيه.

٦ ـ الدّعوة إلى الله آناء اللّيل وأطراف النّهار:

- اعتماد التّدرّج في الإقناع.
- الانطلاق بالحجّة القولية.
- اعتماد تصوّر المخاطبين.
- الصّبر على عناد المخاطبين.
- التّحدّي القولي.
- التّحوّل إلى الفعل.
- التّحدّي الصّارخ بالفعل.
- لا يأس حتّى النّفس الأخير لأنّ الدآعية مكلّف بالتّبليغ فحسب.

٧ - التّواضع المطلق لله عزّ وجلّ واجتناب الغرور مهما عظم حجم العمل.

٨ - الإخلاص الكامل لله عزّ وجلّ.

٩ - التّوبة إلى الله والإكثار من الاستغفار.

١٠ - الدّعاء إلى الله تعالى.بقبول النّيّة والقول والعمل وحسن الختام.

هذا ما يسّر الله جمعه من بركات إبراهيم عليه السّلام، ومن أراد المزيد فليعد إلى الكتاب العزيز الذي لا تنتهي عجائبه، ولا يبلى مع مرور الزّمن، وليعش من خلاله مع إبراهيم عليه السّلام ومع جميع

إخوانه من المصطفين الأخيار، فإنّهم أحسن من يقتدى بهم لمن أراد النّجاة في الدّارين.

وليس لنا في الختام إلاّ أن نقول مع إبراهيم :

﴿ربّ اجعلني مقيم الصّلاة ومن ذرّيتي، ربّنا وتقبّل دعاء، ربّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ .

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

تنبيه :

لقد استلهمنا جلّ ما جاء في هذه الخواطر من الكتاب العزيز كما ذكرنا ذلك في المقدّمة.

وقد استفدنا من عديد من كتب التّفسير، في طليعتها في ظلال القرآن لسيد قطب، كما نظرنا في عديد من كتب العقيدة قديمها وحديثها.

ونستسمح القارىء الكريم في بعض ما نقلناه من بعض النّصوص دون أن نحيل على مصادرها ذلك أنّا اعتبرنا أنّ اختيار المرء جزء من كيانه، ولم نرد أن نثقل النّاشئة بمثل هذه الإ حالات الأكاديمية، والكتاب موجّه للنّاشئة قبل كلّ شيء، والله الموفّق إلى الصّواب، إنّه نعم المجيب، ولا حول ولا قوّة إلاه باللهّ العليّ العظيم.

الفهـــــرس

الإهداء ٣
المقدمة ٧
تمهيد : هل تعرف إبراهيم عليه السلام ١٣
المحـور الأول . إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام ١٧
١ ـ من الفطرة السليمة إلى الإدراك الواعي ١٧
٢ ـ من القول الى الفعل ٤٠
أ ـ تصرف إبراهيم مع أبيه ٤١
ب ـ تصرف إبراهيم مع قومه ٥١
ج ـ تصرف إبراهيم مع أبيه وقومه ٥٧
المحور الثاني . إبراهيم إمام المسلمين ٧١
١ ـ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ٧١
٢ ـ إبراهيم يرسي كلمة الإسلام في بلاد الله الحرام ٧٧
٣ ـ إنها الحنيفية السمحة ١٠٢
المحور الثالث . من ثمرات العقيدة الراسخة ١٠٥
١ ـ عظمة الله عز وجل في تصريف الكون ١٠٦
٢ ـ عظمة الله وفضله يتجليان في الإنسان ١٠٩
٣ ـ حاجة الإنسان الى الوحي ١١٤
٤ ـ إنه الإستعداد إلى دار القرار ١٢٢
المحور الرابع . إبتهالات إبراهيم ١٢٧
١ ـ في جنبات البيت العتيق ١٢٨
٢ ـ إقرارات إبراهيم ودعواته ١٤٤
الخـــاتمة ١٥٥

رقم الإيداع ٣/ ٩٤

المطابع العالمية ـ روي ـ سلطنة عمان